تاريخ

الدولة العثمانية

د. عبد اللطيف الصباغ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

تاريخ الدولة العثمانية

مقدمة:

الدولة العثمانية واحدة من الدول الإسلامية الكبرى التي لعبت دورا في تاريخ الإنسانية عامة وتاريخ العالم الإسلامي بصفة خاصة، وقد دار جدل كبير حول تايخ تلكم الدولة إيجابا وسلبا، ولم يخل الأمر من افتراءات وتزييف للحقائق من الأعداء والمناصرين على حد سواء.

ظهرت الدولة العثمانية على حدود العالم الإسلامي مع أوربا في نهاية العصور الوسطى، كواحدة من إمارات الحدود الحاجزة بين العالمين الإسلامي والمسيحي، ثم تطورت وتوسعت في آسيا الصغرى حتى أصبحت قوة كبرى يحسب لها ألف حساب في موازين القوى في المنطقة مع بزوغ فجر العصر الحديث. فكان لها شأن عظيم في العصر الحديث.

وإذا كانت الفترة الأولى من تاريخ الدولة العثمانية قد اكتنفها الغموض بسبب ندرة المصادر، فإن سجلات الدواوين العثمانية بداية من مرحلة الفتوة احتفظت لنا بكم هائل من وثائق وسجلات الدولة والمؤسسات التابعة لها، وسجلات المحاكم الشرعية التي تعني بقضايا الأفراد، بما يوفر أمام الباحثين مادة أرشيفية لا نظير لها تغطي تاريخ الدولة العثمانية في شتى جوانبه الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك مقارنة بكيانات سياسية معاصرة ولاسيما في عالمنا العربي اليوم، لا تهتم بوثائقها وسجلاتها.

وقد اختلفت آراء المؤرخين لاسيما في عالمنا العربي في تقييمهم للدولة العثمانية، فمنهم من اعتبرها دولة إمبريالية فرضت سيطرتها على العالم العربي وكانت سبباً في تخلفه عن ركب الحضارة، بينما ذهب آخرون إلى أنها ظهرت في الوقت المناسب لتملأ فراغاً سياسياً تركته الدولة العباسية بعد أن تهاوت تحت أقدام جحافل المغول، وحمت العالم الإسلامي من أخطار الصليبيين الجدد لفترة طويلة من الزمن.

ومما لاشك فيه أن الفريق الأول انطلق من فكر قومي وعلماني، تولد مع محاولة السلطان عبد الحميد إحياء فكرة الخلافة، فركز هذا الفريق على فترة ضعف الدولة العثمانية، فيما انطلق الفريق الآخر من إيديولوجية إسلامية، فركز على فترة قوة الدولة العثمانية. وبعيداً عن التحيز لهذا الرأي أو ذاك نحاول من خلال هذه الدراسة أن نقيّم الدولة العثمانية عبر تاريخها الطويل بنظرة شمولية حيادية قدر الإمكان في محاولة لوضعها في مكانها الصحيح من تاريخ العالم الإسلامي الحديث، وأن نبين ما لها وما عليها.

عبد اللطيف الصباغ

بنها ٢٠١٣

الفصل الأول

النشأة والتطور السياسي

حتى الغزو المغولي

لعبت الدولة العثمانية التي دورا كبيرا في تاريخ العالم الإسلامي؟ فهل تساءلت يوما ما كيف نشأت؟ وما هي أصولها العرقية؟ وكيف توسعت وتطورت؟ .. نحاول من خلال هذا الفصل أن نجيب عن هذه الأسئلة.

يكتنف مرحلة النشأة في تاريخ الدولة العثمانية – شأنها في ذلك شأن الإمبراطوريات الكبرى– هالة من الغموض تمثل إحدى إشكاليات تاريخها، فلم يتوقع أحد أن تصل الإمارة الصغرى إلى هذا القدر من الشهرة يوماً ما، لذا لم يهتم أحد برصد تاريخها في هذه المرحلة، لذا تستمد الدولة العثمانية تاريخها في مرحلة النشأة من روايات هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة، لذا حاولنا أن نختزل تاريخ هذه المرحلة في الروايات القريبة إلى المنطق والتي يقبلها العقل دون الخوض في تفاصيل، حتى لا نثقل القارئ بما لا يعنيه. وتتبعنا في هذا الفصل تاريخ الدولة العثمانية منذ أن كانت إمارة صغيرة تحت قيادة عثمان على الحدود بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، وفتوحات عثمان وناقشنا العوامل التي ساعدته على النجاح، ثم جهود أورخان وابنه مراد في توسع الدولة وتوطيد أركانها في آسيا الصغرى، ثم تتبعنا جهود بايزيد الأول في إيجاد موضع قدم لدولته في الجانب الأوربي (البلقان). وأخيرا عرضنا لمحنة الغزو المغولي للدولة العثمانية وكيف نجا آل عثمان من هذه المحنة، وجهود خلفاء بايزيد في إعادة البعث العثماني.

يكتنف مرحلة النشأة في تاريخ الإمبراطوريات الكبرى هالة من الغموض تمثل إحدى إشكاليات تاريخ مثل هذه الإمبراطوريات، فلم يتوقع أحد أن تصل دويلات أو إمارات صغرى إلى هذا القدر من الشهرة يوماً ما، لذا لا يهتم أحد برصد تاريخها في هذه المرحلة، إنما يبدأ الاهتمام برصد التاريخ بعد أن تصل الدولة إلى مرحلة الفتوة، وتبقى مرحلة النشأة هنا تستمد تاريخها من الروايات التي لا تخلو من استدعاء البطولة بأثر رجعي فتكون أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة، وتاريخ الدولة العثمانية ليس استثناء من هذه القاعدة، لذا سنحاول أن نختزل تاريخ هذه المرحلة في الروايات

القريبة إلى المنطق والتي يقبلها العقل دون الخوض في تفاصيل، حتى لا نثقل القارئ بما لا يعنيه.

خرجت قبائل الغز التركية من وسط آسيا غرباً تحت وطأة البحث عن سبل العيش في رأي[١] أو تحت وطأة ضربات قبائل المغول في رأي آخر[٢] ومهما كان السبب فمما لاشك فيه أن العامل الاقتصادي كان وراء هذه الهجرة الاضطرارية، فمن المعروف أن وسط آسيا منطقة طاردة، فهي نافورة بشرية، ولكنها كانت كثيراً ما تعجز عن الوفاء بمتطلبات هؤلاء البشر، لذا خرجت الهجرات البشرية الجماعية من هذه المنطقة إلى غرب آسيا وأوربا وأفريقيا عبر العصور. وسواء خرجت قبائل الترك بحثاً عن العيش أو تحت ضربات المغول فإنها فشلت في الحصول على عيش آمن في المنطقة، ففي مثل هذه المجتمعات تكون لقمة العيش من حق القوي، فعلى الأضعف أن يرحل.

توافق تحرك الترك إلى الحدود الشرقية لدولة الفرس مع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، ومع نجاح المسلمين في القضاء على دولة الفرس اعتنق الأتراك الإسلام وانخرطوا في الجيش الإسلامي، وزاد عدد الترك في بلاط الخلافة العباسية. [٣]

أما أول ظهور سياسي متكامل لهذا العنصر فكان في شكل دولة السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري في الأقاليم الشمالية الشرقية من أملاك الخلافة العباسية، وكانت قسمين شرقي عرف

---

(١) بارتولد، **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ت: أحمد السعيد (الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨) ص ١٠٦

(٢) عبد اللطيف بن دهيش، **قيام الدولة العثمانية** (مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٩٥) ط ٢، ص ٨

(٣) محمد أنيس، **الدولة العثمانية والشرق العربي** (الأنجلو المصرية، القاهرة، ، د ت) ص ص ١١-١٣

بسلاجقة الشام وغربي عرف بسلاجقة الروم، وهي دولة سنية تصدت للشيعة البويهيين الذين تسلطوا على الخلافة العباسية فترة من الزمن، فتمكن طغرل بك من القضاء علي البويهيين وعلى كل مظهر شيعي في دولة الخلافة، ووثق علاقاته بالخليفة العباسي وتولى حماية حدوده. (١)

*** المؤسس عثمان بن أرطغرل ١٣٠١- ١٣٢٦م**

وبضعف دولة السلاجقة واندثارها قامت على أنقاضها في الشرق الدولة الخوارزمية، وفي الغرب ظهرت الإمارة العثمانية على حدود آسيا الصغرى ولكن بشكل متأخر عن الدولة الخوارزمية. وعانت الحدود الشمالية الغربية لدولة الخلافة ردحاً من الزمن من التفتت والصراع بين كيانات سياسية صغيرة ضعيفة، كان من بينها هذه الإمارة التي خرجت من رحمها الدولة العثمانية. تنافست هذه الكيانات الصغيرة في التوسع على حساب الدولة البيزنطية التي كانت تعاني من الضعف آنذاك، جاء هذا التوسع بدافع الجهاد لتحقيق مكاسب ومغانم دنيوية وأخروية. وعلى الحدود الشمالية الغربية من هذه الكيانات بزغ نجم إمارة قادها عثمان بن أرطغرل، وبعيداً عن الأساطير التي وردت في أصل العثمانيين فإن الفضل في تأسيس هذه الإمارة يرجع إلى عثمان الذي ولد في عام ١٢٥٨م في الوقت الذي اجتاح فيه المغول دولة الخلافة العباسية. (٢)

وتؤكد معظم المصادر العثمانية أن الفترة الأولى من تاريخ الأسرة قبل عثمان لم يكن له حظ من السياسة والصراع العسكري، ولم يتعد دور القبيلة الباحثة عن المراعي الشتوية والصيفية في بيثينيا، أما سعي العثمانيين للتنافس السياسي لم يبدأ إلا مع عثمان، فالظروف التي دفعت القبيلة

---

(١) محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي (دار النفائس، بيروت، ١٩٨٨) ط٦، ص ٢٥

(٢) عمر عبد العزيز، **تاريخ المشرق العربي** ١٥١٦- ١٩٢٢(دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤) ص ص ٣٥- ٣٦

للمشاركة السياسية لم تأذن إلا في أواخر القرن الثالث عشر، إن الغموض يكتنف حياة القبيلة بما فيها الفترة الأولى من حكم عثمان.[١]

تضافرت الظروف التاريخية والعوامل الجغرافية مع الموهبة القيادية لعثمان في توسيع رقعة هذه الإمارة، فوجودها على التخوم الشمالية الغربية سمح لها بالتوسع على حساب الجار البيزنطي الضعيف بشكل لم يتوفر لإمارات الداخل، وتأتي عبقرية عثمان في أنه وجه قوته كلها إلى البيزنطيين ولم يحاول التوسع على حساب الإمارات الإسلامية الأضعف،[٢] حتى أنه داهن السلطان السلجوقي فعمل تحت رايته – اسماً– على الرغم من ضعفه، ليكسب عطفه ويؤمِّن جانبه، وفي ظل هذه الظروف تمكن عثمان من تحقيق عدة انتصارات على الجيوش البيزنطية واستولى على عدة حصون في الفترة من ١٣٠١– ١٣١٤م بدأت بعدة حصون سقطت في يد العثمانيين أهمها حصون كته ولفكه وآق حصار وقوج حصار وتكرر بيكاري، وتوج فتوحاته عام ١٣١٧ بفتح بروسة أو بورصة بعد حصار دام ثلاث سنوات، وأعجب قائد بروسه بشخصية عثمان فاعتنق الإسلام وأصبح أحد قواده المخلصين وحذا حذوه العديد من قادة بيزنطه،[٣] كما نجح عثمان بشخصيته الجذابة في ضم عدد من الجماعات الإسلامية العاملة على الحدود مثل جماعة (غزياروم) أي غزاة الروم وجماعة (الإخيان) أي الإخوان كانوا يهبون أنفسهم لخدمة عمليات الغزو. وعامل عثمان البلدان التي فتحها بعدل

---

(١) جمال كفادار، تكون الدولة العثمانية ت: عبد اللطيف الحارس، **مجلة الاجتهاد**، (العددان ٤١، ٤٢، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع ١٩٩٩م) ص ص ٥١– ٥٦

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٣٧

(٣) علي الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط** (مؤسسة أم القرى، الرياض، ٢٠٠٥) ص ص ٤٢– ٤٤

ورحمة، من منطلق حبه للجهاد وإعلاء كلمة الله ونشر الإسلام، فكان ذلك سبباً في اتساع ملكه.(١)

وأوضح باحث تركي براعة عثمان السياسية في بيئة الأناضول الشائكة إثنياً ودينياً، فتجاوزت تحالفاته الخطوط القبلية والعرقية والدينية، ونجح في الفصل بين البيزنطيين الذين يتوسع على حسابهم وبين حكام المدن والقرى المسيحيين الذين تعايش معهم وهادنهم وأحسن إليهم فكانوا عونا له وسنداً في حربه مع البيزنطيين والتتار الوثنيين الذين جاءوا إلى المنطقة بدافع الاستقرار ولو على حساب القوى المحلية الموجودة بالفعل ومنها العثمانيين.(٢)

وقد اتضحت سياسة عثمان الخارجية وأسلوبه في الإدارة من خلال وصيته لابنه أورخان، التي تعددت رواياتها في المصادر فاخترنا منها ما يلي: " يا بني إياك أن تشتغل بما لم يأمرك به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا، يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني إنك تعلم أن غايتنا إرضاء الله رب العالمين، وان بالجهاد يعم نور ديننا الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله. يا بني لسنا ممن يقومون بالحرب لشهوة حكم، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت"(٣)

*** أورخان بن عثمان ١٣٢٧- ١٣٦٠م**

نظم أورخان عقب توليه الحكم شؤون دولته الداخلية، وأسس جيشاً نظامياً بعد أن كان والده يعتمد على جيش من المتطوعين، وزاد عدد هذا

---

(١) زيادة أبو غنيمة، **جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين** (دار الفرقان، ١٩٨٣) ص ص ٣٢، ٣٣

(٢) جمال كفادار، مرجع سابق، ص ص ٦٢- ٦٤

(٣) محمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة** (دار القلم، دمشق، ١٩٨٩) ص ١٦

الجيش وحرص على تزويده بثقافة جهادية تضمن له التفوق فيما يخوض من معارك، واستهل فترة حكمه بفتح مدينة نيقوميديا (أزميت الحالية) ١٣٢٧م وهي من أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى، ثم استولى على مدينة نيقيه (إزنك الحالية) عام ١٣٣٠م.(١)

توجه أورخان بفتوحاته ضد البيزنطيين لكنه انتهز الفرص للاستيلاء على الإمارات الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، فانتهز الصراع على العرش في إمارة قره سي بعد موت أميرها وقام بضمها إلى أملاكه عام ١٣٣٦م، ثم تفرغ أورخان للبناء الداخلي، لتكتمل دعائم دولته، ثم واتته الفرصة في أواخر أيامه لعبور البسفور والدردنيل إلى الجانب الأوربي عندما حدث صراع على العرش البيزنطي واستعان كونتاكوزين Contacuzene بأورخان لمساعدته ضد خصمه المدعوم بالقوات الصربية والبلغارية، فاستجاب له عام ١٣٥٢م ومكنه من العرش وتزوج من ابنته تيودورا، ثم تباطأت القوات العثمانية في الانسحاب، واستولت القوات العثمانية على قلعة تزيمب Tzympe على الشاطئ الأوربي لخليج غاليبولي واتخذها كرأس جسر لنقل الجنود العثمانيين إلى الجانب الأوربي.(٢)

واستغل العثمانيون انهيار أسوار غاليبولي وفرار أهلها منها إثر زلزال ضرب المنطقة، فدخلتها القوات العثمانية ورفضت مغادرتها، واتخذتها قاعدة لها، فانقلب حلفاء الأمس أعداء اليوم. ومن غاليبولي بدأت التوسعات العثمانية في البلقان، وعندما وصل حنا الخامس إلى حكم القسطنطينية

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٣٩

(٢) إبراهيم شحاته حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون ١٥١٠- ١٩٤٧ (منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م) ص ٨٢

هادن أورخان واعترف بفتوحاته في البلقان مقابل تأمين وصول المؤن والغذاء إلى القسطنطينية. [١]

ومن أجل تقوية رأس الجسر العثماني في أوربا نقل العثمانيون مجموعات من بدو الأناضول المسلمين إلى أوربا، وأسسوا لهم قرى تركية جديدة، قسمت تقسيماً إداريا عسكرياً إلى ميمنة وميسرة ووسطى، وكل منها تحت قيادة سيد غازي تحت قيادة سليمان بن أورخان، لكن موت سليمان بشكل مفاجئ سنة ١٣٥٧م وأسر شقيقه الصغر خليل جعل أورخان يقبل صلحاً مع الإمبراطور البيزنطي، ثم استأنف مراد ابن أورخان سياسة التوسع في البلقان بعد إطلاق سراح أخيه خليل سنة ١٣٥٩م..[٢]

*** مراد الأول ١٣٦٠- ١٣٨٩م**

سار مراد الأول على نهج أبيه أورخان في سياسته الداخلية والخارجية، وافتتح ولايته بضم مدينة أدرنه Adrianople عام ١٣٦٠م، وهي أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، فاتخذها عاصمة له في الجانب الأوربي وقاعدة لعملياته الحربية في البلقان، نظراً لقوة حصونها ومناعتها وقربها من مسرح العمليات، فكان لهذه النقلة أثرها الكبير في حياة الدولة العثمانية، فظلت أدرنه عاصمة للعثمانيين حتى فتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وشهدت المدينة في عهد مراد تطوراً عمرانياً وثقافياً كبيراً، فانتقل إليها موظفو الإدارة والقضاء والعلماء والفقهاء، وأقيمت فيها المحاكم وشيدت المدارس والمساجد والمعاهد العسكرية لتدريب الإنكشارية. احتشد تحالف صليبي من ستين ألف جندي لمهاجمة العثمانيين فتصدى لهم القائد

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني** (دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٦) ص ٤٧

(٢) إبراهيم شحاته حسن، مرجع سابق، ص ٨٣

العثماني لالا شاهين بالقرب من (تشيرمن) على نهر مارتيز فهزمهم وفر قادة جيش التحالف من بينهم أميران صربيان لقيا حتفهما في نهر مارتيز.[١]

استأنف مراد ابن أورخان سياسة التوسع في البلقان بعد إطلاق سراح أخيه خليل سنة ١٣٥٩م، فاستولى على القلاع الواقعة على وادي ماريتسا وكل القلاع الواقعة على الطريق بين أدرن عاصمة تراس والقسطنطينية، فقطع خط الإمدادات عن القسطنطينية، واستولى على أدرن عام ١٣٦١م.[٢] تجنب مراد القسطنطينية في غزواته لكنه، حاول تطويقها بفتوحاته من الشمال، ليعزلها عن باقي أوربا، لكنه واجه تحالفاً بلقانياً من البلغار والصرب، فزحف مراد على ملك الصرب لازار Lazare والحق به هزيمة نكراء في يونيو من عام ١٣٨٩م، على أرض كوسوفو Kossovo وتعني أرض الطيور السوداء وعلى الرغم من استشهاد مراد الأول نفسه في ميدان المعركة وهو يتفقد القتلى والجرحى، على يد جندي صربي ادعى أنه يريد أن يعلن إسلامه على يد السلطان فأمّنه فطعنه الجندي بخنجر مسموم، على الرغم من ذلك قضت هذه المعركة على التحالف الصربي فلم يقم للصرب قائمة حتى القرن التاسع عشر.[٣]

تابع العثمانيون غزواتهم في البلقان في ثلاثة خطوط سار الخط الأول في اتجاه الغرب حتى وصلوا في عام ١٣٨٥م إلى الساحل الألباني وقبل الحكام المحليون في مقدونيا وألبانيا السيادة العثمانية. بينما انطلق الخط الثاني من ميناء سالونيك إلى تسالي وتم في عام ١٣٨٧م، بينما امتد الخط الثالث من القسطنطينية إلى بلجراد، وتم استكمال هذا الخط في عهد بايزيد عام ١٣٩٥م بسقوط وادي ماريتسا في يد العثمانيين، ودخل العثمانيون وادي

---

(١) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ٧٣

(٢) إبراهيم شحاته حسن، مرجع سابق، ص ٨٣

(٣) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٣٩، ٤٠

مورافا عن طريق صوفيا ونيش، وفي العام التالي غدت مملكة صربيا ولاية تابعة للعثمانيين. [١]

*** بايزيد الأول ١٣٨٩- ١٤٠٢م**

خلف بايزيد والده مراد بعد استشهاده في ساحة القتال، وظهرت براعة بايزيد في سرعة الانتقال بين ميادين الحرب في الجانبين الأوربي والآسيوي، لذا أطلق عليه لقب (يلدرم) وتعني الصاعقة. حاول البلقانيون توجيه ضربة للسلطان الجديد علها تكون القاضية، فاجتمعت القوات المتحالفة بدعوة من البابا يونيفاس التاسع من ١٢٠،٠٠٠ مقاتل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر والصرب وتقدمت القوات المتحالفة إلى نيقوبوليس Nicopolis على نهر الدانوب، وألحقوا بالقوات العثمانية هزيمة في البداية، لكن دارت الدائرة عليهم وانتصر بايزيد الأول الذي ظهر فجأة في حومة الوغى، وتمكن من قهر أعدائه وأسر معظم قادتهم، ثم عفا عنهم مقابل الفدية، في معركة أطلق عليها المسلمون صليبية نيقوبوليس ١٣٩٦م، فكانت هذه هي آخر معارك التحالف مع العثمانيين في عهد بايزيد، الذي هادن الصرب ليتفرغ للإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى، ووافق على تعيين ابنا الملك لازار على عرش صربيا مناصفة وتزوج من شقيقتهما، على أن يدينان له بالولاء ويدفعان له الجزية ويمدانه بفرقة من الجنود في حالة الحرب. ثم وجه بايزيد ضربة خاطفة لبلغاريا فأخضعها لسلطانه الأمر الذي أثار الرعب في نفوس الأوروبيين، وذلك قبل أن ينتقل إلى آسيا الصغرى ويضم الإمارات الإسلامية السلجوقية لملكه، ولم ينس بايزيد أن يعاقب المتعاونين مع التحالف الصليبي في معركة نيقوبوليس، فعاقب شبه جزيرة المورة لتقديمها مساعدة لأعدائه، وعاقب إمبراطور القسطنطينية فضرب حصاراً حول

---

(١) إبراهيم شحاته حسن، مرجع سابق، ص ٨٤

المدينة، لكنه اضطر لفك الحصار عندما ظهرت بوادر خطر المغول من الشرق.[١]

وبضم الإمارات إسلامية التي نمت على أنقاض الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى انحرفت الدولة العثمانية عن سياستها التي قامت عليها منذ نعومة أظافرها، ألا وهي الجهاد المقدس لنشر الإسلام، حسب رأي أحد المؤرخين[٢] ومع وجاهة هذا الرأي إلا أننا نلفت الانتباه إلى أن وجود هذه الكيانات السياسية الصغيرة الضعيفة في آسيا الصغرى قد لا يخدم قضية انتشار الإسلام في الشق الأوربي الذي يحتاج إلى قوة أكبر وتضافر الجهود بشكل أعظم، لذا فإن ضمها إلى الدولة الأكبر يسخر إمكاناتها لخدمة القضية بشكل أفضل.

وخلال هذه المرحلة من الوجود العثماني في البلقان احترم العثمانيون نظام الإقطاعيات في المنطقة، فاقروا الأمراء المحليين مقابل اعترافهم بالسيادة العثمانية ودفع جزية سنوية، مع الاحتفاظ بأحد أبناء الأمير التابع في البلاط العثماني، على أن يقوم الأمير بزيارة سنوية للبلاط العثماني يؤكد خلالها ولاءه للسلطان وأن يتبنى سياسة الدولة فيعادي من تعاديه الدولة ويصادق من تصادق، ومن يخالف ذلك تعلن أرضه دار حرب مرة أخرى، قبل أمراء البلقان الواحد تلو الآخر بالسيادة العثمانية، ولم تقم دولة كبرى في أوربا بمواجهة العثمانيين خلال هذه المرحلة على الرغم من دعوة البابا لحملة صليبية تواجه الخطر العثماني. [٣]

محنة الغزو المغولي

---

(١) إسماعيل ياغي، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث** (مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٦) ص ص ٤٠، ٤١

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤١

(٣) إبراهيم شحاته حسن، مرجع سابق، ص ص ٨٥، ٨٦

وصلت الأنباء من الشرق برغبة تيمورلنك إلخان مغول إيران[١] في السيطرة على آسيا الصغرى وتوسيع ملكه على حساب الدولة العثمانية، على الرغم من اعتناق تيمورلنك الإسلام آنذاك، لكن يبدو أن الرغبة في التوسع أو إخضاع بايزيد لنفوذه كانت أقوى، يزكيها رسل الغرب الأوربي التي حملت وشاية لتيمورلنك بعزم بايزيد على مهاجمة أملاكه، وإغراء تيمورلنك بغزو آسيا الصغرى، لتخليصهم من شبح التهديد العثماني لهم. أرسل تيمورلنك إلى بايزيد معترفاً بجهوده لخدمة الإسلام، لكنه يطالبه بالخضوع له باعتباره ملك الترك الأعظم، فرفض بايزيد وقبل النزال. تقدم

---

(١) المغول: طائفة من التتار الذين هم شعب من الأتراك قدموا من وسط آسيا، وارتبط ذكرهم بذكرى مؤلمة هي القضاء على الخلافة العباسية بشكل بربري أتوا فيه على الأخضر واليابس في العالم الإسلامي وقضوا على كل مظاهر الحضارة، مستغلين ضعف الدولة العباسية. عاش المغول في هضبة منغوليا الجدباء الموحشة لفترة طويلة من الزمن، ظهر اسم المغول بشكل ملفت في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، بعد توحدهم على يد زعيمهم تموجين الذي تلقب بلقب جنكيزخان أي ملك الملوك، نجح جنكيز خان في توحيد المنطقة ونظم شئونها الداخلية، ثم توجه غرباً نحو المشرق الإسلامي فتمكن من القضاء على الدولة الخوارزمية، بعد أن قتل خوازم شاه رسل جنكيز خان فاستثاره، وتشير المصادر إلى ابن العلقمي الوزير الشيعي للخليفة العباسي المستعصم ودوره في إغراء جنكيز خان بغزو بغداد، وكانت الخلافة العباسية بثرائها وضعفها تسيل لعاب المغول بلا شك، تقدم هولاكو بن جنكيزخان إلى بغداد فأبادها وقتل معظم سكانها ومن بينهم الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ومصادر تلك الفترة مليئة بالأهوال المتعلقة بممارسات المغول غير الإنسانية، وتقدم المغول الشام وكاد يقضي على العالم الإسلامي لولا أن تصدى له مماليك مصر بزعامة سيف الدين قطز، فهزموه في عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. وبموت جنكيزخان عام ١٢٥٩م انقسمت إمبراطوريته المترامية الأطراف بين أبنائه الثلاث، يهمنا هنا منها بلاد فارس وأرمينيا وآسيا الصغرى التي كانت من نصيب ابنه (تولي) فجعل عاصمته تبريز وكانت تسمى إلخانية مغول فارس، بدأ الإسلام يتغلغل في إلخانيات المغول، ودب صرع بين الإسلام والمسيحية والبوذية لجذب هؤلاء القوم، لذا وصل إلى العرش في الفترة التالية شخصيات مسلمة وأخرى غير مسلمة، إلى أن كانت الغلبة في النهاية للإسلام. راجع: رجب محمد عبد الحليم، **انتشار الإسلام بين المغول** (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٦) ص ص ١٥– ٣٨

تيمورلنك إلى سيواس وأهلك حاميتها التي كان يقودها أرطغرل بن بايزيد، وتقدمت قوات المغول نحو أنقرة، فاشتبكت مع بايزيد في معركة حامية انتهت بهزيمة بايزيد وأسره سنة ١٤٠٢م، وانتهت حياته بشكل غامض، فاعتقد البعض أنه انتحر،[١] وهو أمر صعب أن يقدم عليه حاكم مسلم بهذا الحجم.

ويرجع سبب الهزيمة إلى اندفاع بايزيد في القتال دون روية بعد وصوله من الجانب الأوربي متأخراً، بينما كان تيمورلنك قد أعد خطة محكمة للهجوم. أعاد تيمورلنك الوضع في آسيا الصغرى إلى ما كان عليه قبل السيطرة العثمانية وعاد إلى بلاده وما لبث أن توفي وتفككت دولته. وكتب الله للدولة العثمانية البقاء فقد حفظها وجود أبناء بايزيد في الجانب الأوربي، ولم يتمكن المغول من عبور البسفور والدردنيل لاستكمال مهمتهم لأنهم أمة برية لا خبرة لها بالبحار. أما الأوربيون الذين أطلقوا العنان لأنفسهم ابتهاجاً واحتفالاً بهزيمة بايزيد وموته، فكتب البابا وملوك فرنسا وانجلترا وقشتالة لتيمورلنك يهنئونه بهذا الانتصار، اعتقاداً منهم أن شبح الخطر العثماني قد زال إلى الأبد، لكنهم لم تكتمل فرحتهم فما هي إلا سنوات قليلة وعاد العثمانيون من جديد. [٢]

خلفاء بايزيد والبعث العثماني من جديد

وإذا كان القدر وحده قد حفظ آل عثمان من الهلاك وملكهم من الزوال لأمر قد قدر فإن الصراع بين أبناء بايزيد حول العرش استمر عقداً من الزمان (١٤٠٣- ١٤١٣م) حتى تمكن محمد الأول (١٤١٣- ١٤٢١) من حسم الأمر وتولى العرش. ولم يسجل التاريخ لمحمد الأول سياسية توسعية نشطه، لكنه يكفيه أنه أعاد الأمور إلى نصابها، فأستعاد كثير من ملك آبائه

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤١

(٢) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ٨٥

وأجداده المسلوب وقمع الثورات وأعاد الأمن والهدوء إلى البلاد، وأعاد تنظيم الإمارة فهيأ الأمر لخلفائه من بعده ليتابعوا سياسة التوسع من جديد، واتخذ من غاليبولي عاصمة غربية وحلت أدرنه محل بروسة عاصمة شرقية ورئيسية للدولة. (١)

وكان السلطان محمد الأول محباً للأدب والفنون وحب الخير، فكان يرسل بصرةٍ إلى أمير مكة لتوزيعها على فقرائها بشكل سنوي، حتى غدت سنة لخلفائه من بعده، وعلى الرغم من موته المبكر عن عمر لم يتجاوز الثانية والأربعين إلا أنه وطد أركان دولته وقضى على الفتن. (٢)

ومما لاشك فيه أن الخلاف حول العرش سنة غير صحية جديدة على الدولة العثمانية، لكنها استمرت وسيكون لها عواقب وخيمة في مستقبل الدولة. ويبدو أن وفاة بايزيد فجأة بسبب الغزو المغولي جعله يترك العرش بدون إعداد لمن سيخلفه من أبنائه، فكان الخلاف الذي استمر عقداً كاملاً من الزمان.

قلبت معركة أنقرة ١٤٠٢ موازين القوى في البلقان لصالح البيزنطيين الذين استغلوا الصراع على العرش العثماني، فأرغم الإمبراطور البيزنطي يوحنا السابع الأمير سليمان بن بايزيد على توقيع معاهدة مذلة سنة ١٤٠٣م، مكنت الإمبراطور من العودة إلى القسطنطينية وأعادت له كثير من المدن حول العاصمة، وباستقرار الأمور في الدولة العثمانية شهدت العلاقات العثمانية البيزنطية هدوءاً نسبياً طوال عهد محمد الأول، وزعم أحد الباحثين أن أواصر الصداقة توطدت بين السلطان العثماني والإمبراطور البيزنطي لدرجة أن السلطان محمد أوصى وهو على فراش الموت بوضع اثنين من أولاده الصغار تحت وصاية الإمبراطور، ولما تولى السلطان مراد

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٢

(٢) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ٩٢

الثاني العرش (١٤٢١- ١٤٥١) طلب منه الإمبراطور تنفيذ وصية والده بإرسال اثنين من إخوته إلى القسطنطينية لكن السلطان مراد رفض تنفيذ الوصية، فأطلق الإمبراطور أحد مدعي العرش وزوده بالسلاح والمال والرجال، غير أن مراد تمكن من القضاء عليه، وبقي الخلاف بينه وبين الإمبراطور مانويل، وحاصر القسطنطينية حتى غدت قاب قوسين أو أدنى من قبضته، غير أن الإمبراطور أشعل الثورة في آسيا الصغرى لتشتيت قوة السلطان العثماني.[١]

توجه السلطان مراد الثاني إلى آسيا الصغرى فخاض حروباً كبرى تمكن من حسمها لصالحه وضم إماراتها فيما عدا إمارة قرة مان، ثم عاد إلى البلقان وأرغم الإمبراطور في عام ١٤٢٤م على توقيع معاهدة جديدة تنازل بمقتضاها عن المكاسب التي حصل عليها عقب معركة أنقره ١٤٠٢م، واستولى على سالونيك في مارس ١٤٣٠م. [٢]

وجهت الجيوش العثمانية ضربات موجعة ضد حركات التمرد في شتى أنحاء البلقان فأخضعت ملك الصرب لازار ميتش الذي جدد ولاءه للسلطان مراد، واتجه جيش عثماني نحو اليونان لتوطيد دعائم الحكم هناك، حاول العثمانيون فتح ألبانيا ونجح جيش عثماني في عام ١٤٣١م من فتح جنوب ألبانيا، غير أن الألبان الشماليون بمساعدة قوى أوربية أخرى لاسيما البنادقة تمكنوا من القضاء على حملتين عثمانيتين متتاليتين، وكبدوا العثمانيين خسائر فادحة في الأرواح عند الانسحاب. ثم اتجه السلطان مراد إلى المجر فالحق بها هزيمة نكراء في عام ١٤٣٨م واستولى على الأفلاق ثم هاجم بلجراد لكنه فشل في دخولها، وواجه مراد حلفاً صليبياً كبيراً دعا إليه البابا،

---

(١) صلاح ضبيع، العلاقات العثمانية البيزنطية، **مجلة الاجتهاد**، (العددان ٤١، ٤٢، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع ١٩٩٩م) ص ص ١٨٧، ١٨٨

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٢

تمكن هذا الحلف من إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية وأسر محمود شلبي قائد الجيوش وزوج ابنة السلطان الذي اضطر لقبول صلح في ١٤٤٤م لمدة عشر سنوات، أعاد بمقتضاه الأفلاق للمجر واعترف باستقلال الصرب وافتدى زوج ابنته بمبلغ ستين ألف دوقية. (١)

أنهى مراد الثاني حياته السياسية بنفسه في عام ١٤٤٧م بعد أن آثر حياة الزهد والعزلة إثر فجيعته في موت ابنه الأكبر الأمير علاء فجأة، فتنازل عن العرش لابنه محمد وهو ابن أربعة عشر عاماً، ثم ذهب إلى مغنيسيا بآسيا الصغرى ليقضي بقية عمره في عزلة وخلوة تفرغ خلالها للعبادة والتأمل(٢) وما أن وصل الخبر إلى أوربا حتى قرر البابا نقض المعاهدة مع الدولة العثمانية على اعتبار أنه لم يباركها وهو ممثل المسيح في الأرض، فتجمعت جيوش أوربا وقررت مهاجمة أملاك الدولة العثمانية في البلقان، فخرج مراد الثاني من خلوته وتوجه على رأس أربعمائة ألف مقاتل إلى البلقان، فالتقى جيش التحالف في سهول قوصوة بالقرب من أدرنه في منتصف أكتوبر ١٤٤٨م في معركة دامت ثلاثة أيام، تمكن خلالها السلطان مراد من هزيمة جيش التحالف وقتل ملك المجر وقطعت رأسه ورفعها الجنود على سن رمح، واكتفى السلطان مراد بهذا الانتصار، وعاد إلى خلوته في مغنيسيا مرة أخرى، لكن سرعان ما ثار الإنكشارية وسببوا فوضى كبرى في البلقان، فقرر السلطان العودة للحكم للمرة الثالثة وبقي في الحكم هذه المرة لنهاية حياته. (٣)

وهكذا نشأت الدولة العثمانية كإمارة من إمارات الحدود الحاجزة بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، واستفادت من ضعف الطرفين وتوسعت

---

(١) إسماعيل ياغي، مرجع سابق، ص ٤٦

(٢) سالم الرشيدي، **محمد الفاتح**، (دار الإرشاد للنشر، جده، ط٢، ١٩٨٩م) ص ٤٣

(٣) عبد السلام فهمي، **السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم**، (دار القلم، دمشق، ط ٤، ١٩٨٧م) ص ص ٢٢، ٢٣

في البداية على حساب الجانب البيزنطي ثم على حساب الإمارات الإسلامية في آسيا الصغرى، وفي نهاية هذه المرحلة تعرضت لغزو مغولي كاد يقضي عليها في مهدها، لولا العناية الإلهية التي أنقذت أبناء السلطان بايزيد لوجودهم في الجانب الأوربي إبان الغزو المغولي للدولة العثمانية.

الفصل الثاني

عصر القوة والازدهار

محمد الثاني (الفاتح) ١٤٥١- ١٤٨١م

هل تعرف عزيزي القارئ كيف انتشر الإسلام في شرق أوربا؟ وكيف آلت عاصمة الدولة البيزنطية (مدينة القسطنطينية العريقة) إلى المسلمين؟ هل تعلم أن الدولة العثمانية كانت سيدة أوربا يوما ما. تعالو بنا نترف على قصة الكفاح العثماني في شرق أوربا وفتح القسطنطينية على يد محمد الثاني الذي لقب بالفاتح، وفضل فتح القسطنطينية، وكيف فتح العثمانيون هذه المدينة الحصينة، وصلت الدولة العثمانية إلى أقصى حد في توسعاتها بالمشرق الإسلامي في عهد سليم الأول، كما وصلت الدولة العثمانية إلى ذروة مجدها وعنفوان قوتها في عهد سليمان القانوني.

محمد الثاني (الفاتح)

اعتلى محمد الثاني المعروف بمحمد الفاتح العرش بشكل نهائي بعد وفاة والده السلطان مراد الثاني في عام ١٤٥١م، ووضع نصب عينيه وصية والده بإتمام ما بدأه أجداده في أوربا بفتح العصمة البيزنطية وتحقيق الحلم الذي راود المسلمين منذ فترة طويلة، فعقد اتفاقيات سلام مع الدول الأوربية

المجاورة والإمارات الواقعة على حدود الدولة العثمانية في آسيا الصغرى. بدأ محمد الثاني يعد العدة للفتح الأكبر والأشهر في تاريخ الدولة العثمانية بتؤدة؛ فبنى قلعة عملاقة على مضيق البسفور بالقرب من أسوار القسطنطينية[١] عرفت بقلعة الروميللي بلغ ارتفاعها اثنين وثمانين متراً مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد في الجانب الأسيوي، لتشرفان على أضيق منطقة في البسفور، ولتتحكمان معاً في عبور السفن من هذا المضيق لمنع الإمدادات البحرية عن القسطنطينية، كما استعان محمد الفاتح بخبير مجري يدعى أوربان في بناء مدفع عملاق أطلق عليه المدفع السلطاني، إضافة إلى عدد من المدافع الحديثة الضخمة. كانت هذه المدافع ثقيلة تحتاج على مئات الثيران لجرها، كما عمل على تزويد الأسطول العثماني بعدد من السفن الحديثة، تحسباً للمواجهات البحرية، وفشلت جهود الإمبراطور البيزنطي في وقف بناء القلعة. [٢]

---

(١) تعد القسطنطينية من أجمل مدن العالم وأهمها، بناها الإمبراطور قنسطنطين الأول في مطلع القرن الرابع الميلادي لتكون معقلاً للمسيحية، لينهي ثلاثة قرون من الاضطهاد لأتباع عيسى عليه السلام، لذا فإن كثيراً من المؤرخين يتخذون من بنائها نهاية للعصور القديمة وبداية للعصور الوسطى، ويتخذون كذلك من سقوطها نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة. وقد حاول المسلمون كثيراً الفوز بهذه المدينة منذ أيام الدولتين الأموية والعباسية ومروراً بدولة سلاجقة الروم وصولاً إلى الدولة العثمانية، تحقيقاً لبشارة النبي صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق، ومدحه صلى الله عليه وسلم للأمير والجيش اللذان سيفتحانها، فيما رواه الإمام أحمد في مسنده " لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"

(٢) عبد العزيز العمري، **الفتوح الإسلامية عبر العصور** (دار أشبيلية للنشر، الرياض، ١٩٩٧) ص ٣٦١

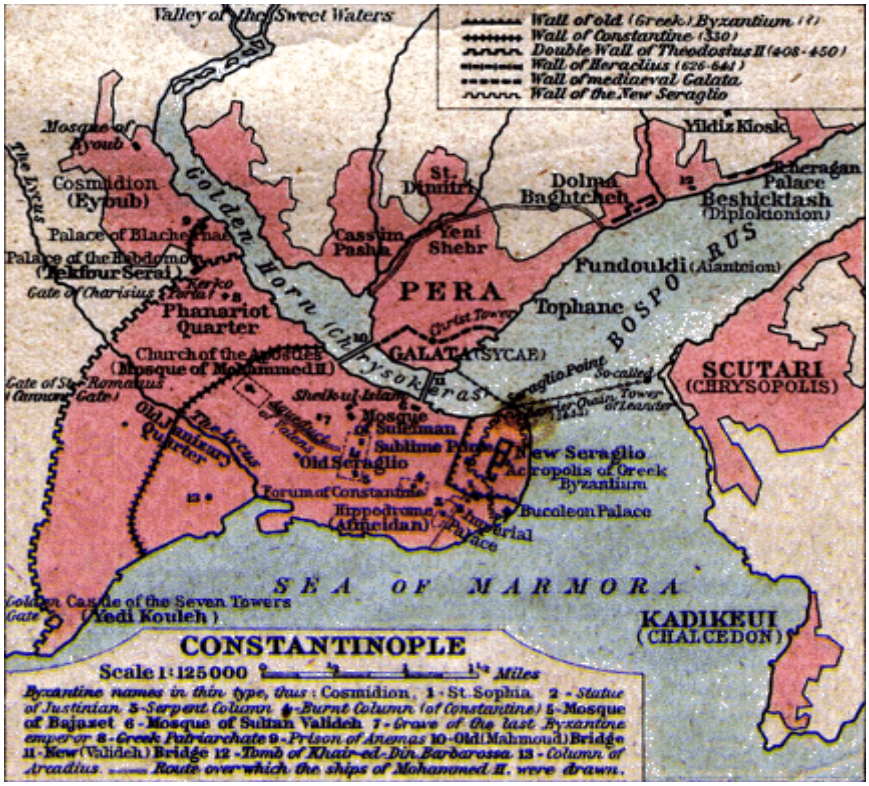

موقع مدينة القسطنطينية

أيقن الإمبراطور قنسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨- ١٤٥٣م) أن عاصمته هي المستهدف من وراء استعدادات محمد الثاني، فبذل قصارى جهده في تحصينها. وقد بنيت القسطنطينية على مثلث أرضي محاط بالمياه من جانبين، في موقع حصين مرتفع يشرف على مضيق البسفور والقرن الذهبي وأحيطت بسور من جميع الجهات مزود بأبراج للحراسة والمراقبة.(١)

قام الإمبراطور بترميم أسوارها، كما أحاط الأسوار المشرفة على الجانب البري من أرض البلقان بخندق يمنع المهاجمين من الوصول إلى السور، وأقام المتاريس، وجمع الأطعمة اللازمة لمدة طويلة في حالة الحصار، وجمع الأسلحة اللازمة للدفاع عن المدينة، كما أرسل إلى البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧- ١٤٥٥م) يطلب منه المساعدة، فجاء الرد البابوي

(١) يوسف بك آصاف، **تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن**(مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥) ص ٢٠

بضرورة توحيد الكنيستين (الكاثوليكية والأرثوذكسية) فاستجاب الإمبراطور وعقد الاجتماع في كنيسة أيا صوفيا، حيث تم توحيد الكنيستين، ولكن بقي هذا التوحيد أجوفاً فلم يلق تأييداً شعبياً لدى الطرفين. (١)

وقد عبر قائد الأسطول البيزنطي عن سخط البيزنطيين على توحيد الكنيستين بقوله: "إنني أفضل أن أرى عمائم الأتراك حاكمة للقسطنطينية من أن أرى قلنسوة اللاتين هاهنا" ووجه الإمبراطور سفراءه إلى الدول الأوربية طالباً منها المساعدة، غير أن الوضع الأوربي لم يسمح إلا بالقليل من المساعدات جاءت من جنوة والبندقية. (٢)

تقوقعت القسطنطينية على نفسها، وغدا من الصعب التكهن بإمكانية فتحها، فالمدينة تشرف على ممر مائي بشواطئ صخرية شديدة الانحدار يصعب تسلقها، علاوة على الأسوار والنيران الإغريقية التي تقذف بها الحامية من الأبراج على السفن المغيرة، كما أن السلسلة الحديدة تمنع السفن والقوارب من دخول القرن الذهبي الذي تشرف عليه أسوار المدينة وميناؤها الوحيد، وهذه هي الجهة الأضعف في السور، أما الدفاعات البرية فأسوارها وأبراجها منيعة إضافة إلى الخندق الذي أمر بحفره الإمبراطور حول هذا السور مما يصعب من مهمة المغيرين.

بدأت بوادر الحصار بتوجه الأسطول العثماني من غاليبولي إلى القسطنطينية في نهاية مارس ١٤٥٣م، وتحرك المدفع العثماني العملاق تجاه المدينة في الثاني من إبريل، وتجمعت القوات البرية أمام أسوار القسطنطينية في ٦ إبريل. وقبل أن تبدأ العمليات العسكرية أرسل السلطان محمد الثاني رسولاً يحمل رسالة إلى الإمبراطور القابع في القسطنطينية جاء

---

(١) حاتم الطحاوي، اقتحام العثمانيين للقسطنطينية شهادة المؤرخ البيزنطي دوكاس، **مجلة الاجتهاد**، (العددان ٤١، ٤٢، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع ١٩٩٩م) ص ١٩٨

(٢) صلاح ضبيع، مرجع سابق، ص ١٨٩

فيها "لقد اكتملت تجهيزات الهجوم الشامل، وجاء الوقت الذي يجب أن نحدد ماذا نحن فاعلين ... ماذا ترى الآن؟ هل ترغب في تسليم المدينة والرحيل في سلام إلى أي مكان تحدده برفقة حاشيتك وأهل بيتك وممتلكاتهم، تاركاً خلفك سكان المدينة مع وعد بألا نتعرض لهم بسوء؟ أم أنك سوف تختار المقاومة وما سيترتب على ذلك من فقدان لحياتك وممتلكاتك، وتفضل أن ترى الأتراك وهم يقومون بسبي شعبك، وتشتيتهم عبر أرجاء الأرض؟" وجاء الرد الإمبراطوري يعرض ضريبة سنوية كبيرة يدفعها للسلطان العثماني مقابل العيش في سلام كما كان الوضع أيام الآباء، لكنه يرفض تماماً فكرة تسليم المدينة مؤثراً الموت على التسليم دفاعاً عن المدينة، وشكك في إمكانية تحقيق العثمانيين النصر على المدينة الحصينة. (١)

أيقن السلطان العثماني أن لا مفر من المواجهة العسكرية، كما عجزت البحرية العثمانية عن تحقيق النصر على الأسطول البيزنطي في البسفور حتى ٢٢ إبريل، وحالت السلسلة العملاقة دون دخول الأسطول العثماني القرن الذهبي. ومع عجز البحرية العثمانية عن صد السفن البيزنطية ومنعها من دخول البسفور عزل السلطان محمد الثاني قائد البحرية العثمانية بالطة أوغلي وعين مكانه حمزة باشا، وحاول الوزير خليل باشا أن يقنع السلطان بالعدول عن فتح القسطنطينية والاكتفاء من الغنيمة بمصالحة أهلها على الجزية، لكن السلطان أصر على استمرار الحصار حتى الفتح. (٢)

---

(١) حاتم الطحاوي، مرجع سابق، ص ص ٢٠١، ٢٠٢

(٢) سالم الرشيدي، مرجع سابق، ص ص ٣٠٢- ٣٠٧

جانب من القتال على أسوار القسطنطينية

لم يكن اليأس يعرف إلى قلب محمد الثاني طريقاً، فرسم مع أركان حربه خطة لنقل قطع من الأسطول من ميناء بكطاش إلى داخل القرن الذهبي مباشرة لمسافة ثلاثة أميال براً، تجرها الخيول تارة والقوات البرية تارة أخرى فوق كتل خشبية مدهونة بالشحم والزيت، فتمكن العثمانيون من نقل ثمانين سفينة في ليلة واحدة، فلما كان الصباح فوجئ أهالي المدينة والمدافعين عنها بالقوات العثمانية في الميناء. (١) وأمر السلطان ببراميل حديدية تجمع إلى بعضها وتمسك بشناكل لتشكل جسراً توضع عليه مشاية خشبية لعبور الجنود، وبذلك نجح في إدخال الجنود العثمانيين إلى الجزء الأضعف من السور واكتمل حصار المدينة براً وبحراً. (٢)

(١) عبد السلام فهمي، مرجع سابق، ص ص ١٠٠- ١٠٢اع

(٢) يوسف بك آصاف، مرجع سابق، ص ٥٠

محاولات نقل السفن براً إلى القرن الذهبي

استمرت العمليات العسكرية طوال الفترة من ٢٩ إبريل حتى ٢٥ مايو ١٤٥٣م في شكل هجمات عثمانية ودفاع بيزنطي استبسالي وبطولي، ومع طول الحصار عرض الإمبراطور السلام والاحتفاظ بالقسطنطينية مقابل جزية كبيرة يدفعها للسلطان العثماني الذي أصر على تسليم المدينة. فلما أيقن الإمبراطور قنسطنطين أن لا مناص من الحرب ذهب إلى كنيسة آيا صوفيا استعداداً للقتال حتى الموت، ووصلت إمدادات من إيطاليا تمكن خمسين جندياً منهم من دخول المدينة رغم الحصار. وحاول العثمانيون دخول المدينة بشتى الطرق منها فكرة حفر أنفاق أسفل أسوار المدينة، لكن هذه الطريقة لم تعط الثمار المرجوة، فانتهى بعضها بسقوطها فوق رأس الجنود، وانتهى البعض بالوقوع في أسر البيزنطيين فقتلوهم والقوا بهم إلى

معسكر العثمانيين، وانتهى الآخر بالاختناق إثر مقابلة البيزنطيين لهم بالنيران. (١)

لم ييأس العثمانيون من الحصار وابتدعوا طرقاً جديدة منها محاولة اقتحام الأسوار بالقلاع المتحركة المكسوة بالجلود المبللة بالماء حتى لا تتعلق بها النيران الإغريقية، والقلعة مؤلفة من ثلاثة أدوار، في كل دور منها مجموعة من الرماة، أخذت القوات العثمانية تقترب بالقلعة الخشبية رويداً رويداً، الأمر الذي أصاب القوات البيزنطية المدافعة عن المدينة بالذعر، ومن القلعة تمكنت القوات العثمانية من اصطياد كل من ظهر من القوات المدافعة عن المدينة من أعلى السور. اقترب العثمانيون بالقلعة حتى التصقت بالسور لكن المدافعون تمكنوا من تكثيف النيران حتى احترقت القلعة. (٢)

أكد المؤرخ البيزنطي دوكاس أن السلطان محمد الثاني قاد المعركة بنفسه من فوق صهوة جواده، فكان يواصل الليل بالنهار يحفز جنوده على القتال بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، فأحيط المهاجمون بأسوار المدينة إحاطة السوار بالمعصم بأعداد هائلة تزيد على المائتي ألف، بينما تركزت دفاعات البيزنطيين من داخل السور بقيادة الإمبراطور وقائد قواته جستنياني في المناطق المهدمة من السور والبوابة الرئيسية للمدينة، وعززوا دفاعاتهم بالخنادق ورماة الأقواس والنيران والحجارة على القلاع البارزة من السور. حاول الأتراك تسلق الأسوار برمي السلالم عليها، محتمين بدروعهم، لكن تم إحباط العملية بسيل من الحجارة ألقيت عليهم من فوق السور، لكن العثمانيون لم ييأسوا، فتمكن خمسين جندياً من تسلق السور وقتلوا مَنْ فوقه من البيزنطيين ونصبوا السلالم في منطقة نائية عن نقاط تركز القوات

---

(١) عبد العزيز العمري، مرجع سابق، ص ٣٧٢

(٢) سالم الرشيدي، مرجع سابق، ص ١٤٤

المدافعة عن المدينة. تسلل عدد كبير من الأتراك إلى داخل المدينة فقتلوا كل من واجههم، حتى أنهم لم يتمكنوا مكن فتح البوابة الرئيسية لكثرة الجثث أمامها، فتسلل المقاتلون العثمانيون من الفتحات الموجودة في الأسوار، وتحول جزء من المعارك داخل المدينة. (١)

وحدد محمد الثاني يوم ٢٩ مايو لهجوم شامل على المدينة، وأباح لقواته نهب المدينة ثلاثة أيام في حال نجاحهم في فتحها. نجح البيزنطيون في رد هجمات العثمانيين الأولى، غير أن مقتل القائد البيزنطي جستنياني فت في عضد قواته، فتفوق العثمانيون ومع نجاح قوات الانكشارية في فتح ثغرات عدة في السور بمساعدة المدفعية الثقيلة، أظهر الإمبراطور بسالة نادرة في الدفاع عن المدينة، وحاول أن يفتديها بالمال للمرة الثانية لكن السلطان العثماني أصر على تسليم المدينة مقابل تأمين أهلها وكنائسها، ولما تيقن الإمبراطور من سقوط المدينة اندفع في وسط الانكشارية فقتلوه، وبسقوط الإمبراطور في ساحة القتال عمت الفوضى أرجاء المدينة واستسلمت للقوات العثمانية. (٢)

شهدت المدينة عقب الفتح عمليات سلب ونهب، كعادة العمليات العسكرية ضد المدن، لكن عندما دخل السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية أمر بوقف عمليات السلب والنهب، مخالفاً وعده لجنوده، وقرر أن يتخذ من القسطنطينية عاصمة له ولأولاده من بعده، وشهد مؤرخو أوربا بأن عمليات السلب والنهب والقتل التي تعرضت لها القسطنطينية على يد الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م كانت اشد وأخطر على المدينة من عمليات السلب والنهب التي تعرضت لهما على يد العثمانيين.

---

(١) حاتم الطحاوي، مرجع سابق، ص ص ٢٠٤- ٢٠٨

(٢) يوسف بك آصاف، مرجع سابق، ص ٥١

اتجه محمد الفاتح إلى كنيسة أيا صوفيا فأمن من فيها من رجال الدين والرهبان، فخرجوا إلى بيوتهم في أمان، وأمر بتحويل الكنيسة إلى مسجد، لأن المدينة فُتحت عنوة، وصلى بها الظهر. أخضع الفاتح نصارى المدينة للجزية، وأعطاهم في الوقت نفسه حرية إقامة شعائرهم الدينية واختيار رؤسائهم للفصل بينهم في المسائل المدنية، وهو حق أعطته الدولة العثمانية للمسيحيين في كل أقاليمها.[١] وأطلق على القسطنطينية اسم استامبول وتكتب أحياناً استانبول أو إسلامبول أي ديار الإسلام أو عاصمة الإسلام، وهو اسم أطلقه المسلمون الأوائل على هذه المدينة. ومما لاشك فيه أن هذا الفتح رفع اسم العثمانيين عالياً في العالم الإسلامي فقد حققوا حلماً طالما راود المسلمين، فأرسل محمد الثاني الملقب بالفاتح رسائله إلى حكام العالم الإسلامي يزف إليهم نبأ فتحه العظيم مفاخراً، فجاء في رسالته إلى عزيز مصر المملوكي إينال شاه (١٤٥٣- ١٤٦٠م) يقول:

" إن من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون، وعلى تلك المنية دائمون، مسترشدين بقوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" ومستمسكين بقوله صلى الله عليه وسلم "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار" فهممنا هذا العام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومستمسكين بفضله إلى أداء فرض الغزو في الإسلام، مؤتمرين بقول الحق تبارك وتعالى "قاتلوا الذين يلونكم من الكفار" وجهزنا عساكر الغزاة والجاهدين من البر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً، وبقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً"

واحتفل اينال بهذا النصر ودقت بشائره في القلعة وأرسل إلى محمد الثاني يهنئه بالفتح. [٢]

---

(١) عبد العزيز العمري، مرجع سابق، ص ٣٨٤

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٤

حاول محمد الفاتح أن يعتزل الحياة السياسية بعد فتح القسطنطينية ويدخل خلوة للعبادة متأثراً بشيخه ومرشده الشيخ "آق شمس الدين" الذي حفزه على فتح القسطنطينية وسانده في مهمته بالتوجيه المعنوي للجنود طوال الإعداد للفتح وفترة الحصار، لكن الشيخ رفض طلب محمد الفاتح في الالتحاق به في خلوته خوفاً على السلطنة من أن تحرم من مثل هذه القيادة إن أحس الفاتح بلذة الخلوة، فنصحه بالعودة وعدم الغرور وتحري العدل بين الرعية ففيهما خير السلطان والعباد والبلاد. (١)

وباستيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية أصبحت الإمارة العثمانية تستحق لقب إمبراطورية، وغدا البحر الأسود بحيرة عثمانية، فتحكمت في مدخله ومخرجه. ومما لاشك فيه أن فتح القسطنطينية يعد أعظم أعمال محمد الثاني الحربية واستحق عليه لقب الفاتح، لكنه لم يكن آخرها ، فقد جرد جيشاً من مائة وخمسين ألفاً على بلجراد لكنه فقد كثيراً من جنوده ومدافعه دون أن يحقق مكاسب تذكر، فعاد إلى القسطنطينية، وفي عام ١٤٦١م استولى محمد الفاتح على مملكة ترابيزون، وهي مملكة يونانية مسيحية في شمال الأناضول، ثم استولى على أثينا عاصمة بلاد اليونان. (٢) وكانت مملكة ترابيزون قد تحالفت ضده مع الأمير أوزون حسن التركماني، زعيم إمارة آق قوينلو (القطيع البيض) التي تكونت في شرق آسيا الصغرى عقب انهيار إمبراطورية تيمورلنك، لكن أوزون حسن تخلى عن حلفائه عندما هاجمهم محمد الثاني، ثم تمكن الفاتح من ضم إمارة قره مان في آسيا الصغرى إلى أملاك الدولة العثمانية، وكانت قد شقت عصا الطاعة إبان محنة ١٤٠٢م. (٣)

---

(١) محمد علي الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** (دار المعرفة، بيروت، د. ت) جـ٢، ص ١٦٧

(٢) يوسف بك آصاف، مرجع سابق، ص ٥١

(٣) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٤

ويذكر أن الفاتح كان عادلا بين رعاياه، فتح أبوابه لتلقي الشكاوى، وكان دائم مباشرة أحوال الرعية وتفقدها، حتى أنه كان في غزواته ينصب خيمته ويجلس لمقابلة الرعية ويتلقى شكواهم من الحكام والمديرين، ويحقق فيها بنفسه ويعاقب من يجور على الرعية، كما اهتم بالقضاة ورفع مكانتهم ووفر لهم سبل العيش ليقطع عليهم طريق الرشوة، وعاقب كل من يعتدي على القضاة من رجال الإدارة بكل قسوة، ليحفظ لهم هيبتهم، فهاهو داوود باشا الذي أصبح وزيراً في عهد بايزيد الثاني كان من غلمان السلطان فاعتدى على أحد القضاة بالضرب، فرفض الفاتح وساطة الوزراء في العفو عنه، وأصر على حضوره دار السلطنة وضربه بنفسه ضرباً شديداً حتى تملكه المرض. فكان داوود باشا يذكر هذه الواقعة ودورها في تقويمه، كما كان يسير رجال تفتيش من النصارى لتفقد أحوال النصارى وتسجيل ما يجدونه من تجاوزات بحقهم وعرضها عليه للتحقيق. (١)

وفي عهد محمد الفاتح بدأ الاحتكاك بين المماليك والعثمانيين لأول مرة، حيث شغلت منطقة التخوم بين الدولتين إمارتان هما إمارة ذو القادر في البستان وملطية وإمارة رمضان أوغلو أو بني رمضان. وقد لعبت إمارة ذو القادر دوراً كبيراً في تحريك العداء بين الدولة العثمانية والمماليك، فالإمارة تابعة اسمياً للمماليك، وعندما حدث صراع على العرش سنة ١٤٦٥م في الإمارة المذكورة تدخل المماليك لصالح بوداق، فيما استعان شقيقه شاه سوار بالعثمانيين وأسفرت المساعدات العثمانية عن تمكين شاه سوار من العرش، فتحول ولاءه للعثمانيين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك. حاول السلطان المملوكي قايتباي خلع شاه سوار أكثر من مرة لكنه فشل إلى أن تمكنت القوات المملوكية من إلقاء القبض عليه وإرساله إلى القاهرة، ووضعت مكانه أخيه ومنافسه على العرش بوداق. لم يكف

---

(١) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ١٦٠- ١٦٥

الفاتح عن التدخل في شئون الإمارة فخلع بوداق وعين شقيقه الأصغر علاء الدولة في سنة ١٤٨٠م. (١)

كانت الجيوش العثمانية في آخر أيام الفاتح قد وصلت إلى إيطاليا، ودان شرق أوربا كله للعثمانيين، وفي ١٤ ربيع الأول ٨٨٩هـ (٣ مايو ١٤٨١م) توفي الفاتح في اسكيدار بآسيا الصغرى وسط جيش جرار لا يعرف أحد مقصده، وكانت هذه هي عادة محمد الفاتح، ورجحت الروايات أن جزيرة رودس كانت هي المقصد، لذا أقيمت بها الأفراح ابتهاجاً بموت الفاتح. وبمجرد وصول خبر الوفاة انسحبت الجيوش العثمانية من إيطاليا، وابتهجت أوربا فرحاً بهذا الخبر لاسيما البابا الذي أمر بفتح الكنائس وإقامة الصلوات ابتهاجاً بالتخلص من أكبر خط تهدد أوربا آنذاك، وجابت المواكب الشوارع وأقيمت المهرجانات وسط طلقات المدافع في روما ثلاثة أيام. (٢)

بايزيد الثاني ١٤٨١- ١٥١٢م

عقب وفاة محمد الفاتح حدث نزاع على العرش بين ابنيه بايزيد وجم، نجح الأول في الوصول إلى استانبول وأعلن نفسه سلطاناً، فيما بقي الثاني في بروصه وأعلن نفسه سلطاناً أيضاً. وهنا ظهرت فكرة تقسيم الإمبراطورية بينهما، شق أوربي يحكمه بايزيد وشق آسيوي يحكمه جم، لكن فكرة التقسيم لم ترق بايزيد فأرسل جيوشه تطارد جم حتى خرج إلى مصر. حاول قايتباي مناصرة جم لكنه لقي هزيمة على يد قوات بايزيد، ففر جم إلى رودس حيث تلقفته فرسان القديس يوحنا، واتخذوا منه ورقة للضغط على بايزيد، ونقلوا جم إلى أوربا الغربية، فبقي بها حتى وافته المنية في عام ١٤٩٥م، وخلال الفترة

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٤٧، ٤٨

(٢) سالم الرشيدي، مرجع سابق، ص ص ٣٧٢- ٣٧٧

التي بقي فيها جم في أوربا الغربية توقفت أعمال بايزيد التوسعية في أوربا، حتى لا يستثير الدول الأوربية ضده. (١)

أدت مساندة قايتباي لجم إلى إثارة بايزيد الثاني فأرسل قواته تهاجم أطراف دولة المماليك، فاستولت على قيليقيه في عام ١٤٨٧م، غير أن المماليك تمكنوا من استردادها عام ١٤٩٠م وأرغموا علاء الدولة على التنازل عن عرش إمارة ذو القادر، وانشغلت الإمبراطورية العثمانية بمشاكل جم في الغرب. وتمت تسوية المشاكل بين المماليك والعثمانيين في صلح عام ١٤٩١م، حيث عادت مناطق النفوذ إلى ما كانت عليه من قبل، وأطلق الطرفان سراح ما بقي لديهما من أسرى، وظلت إمارة ذو القادر شبه مستقلة في ظل النفوذ المملوكي، وظل هذا الصلح ساري المفعول حتى عام ١٥١٢م عندما أجبر السلطان سليم الأول أباه بايزيد الثاني على التنازل له عن العرش. (٢)

انشغل بايزيد بالدفاع عن ممتلكاته في الجانبين الأوربي والأسيوي، ففي الجانب الأوربي واجه بايزيد تحالفاً من البابا وملوك البندقية والنمسا وفرنسا حاول هذا التحالف أن يشل حركة التوسعات العثمانية، وفي الجانب الأسيوي أخذت إمارة موسكو تتوسع على حساب الدولة العثمانية، وعقد بايزيد اتفاقاً مع السلطان المملوكي لنصرة المسلمين في الأندلس ضد تجاوزات الممالك المسيحية هناك، فأرسل أسطولاً عام ١٤٩٩م حقق بعض الانتصارات، لكنه لم يكن بالقوة الكافية ليترك أثراً واضحاً على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا، ومما لاشك فيه أن الصراع مع جم على العرش كانت له آثار سلبية على قوة بايزيد في مواجهة أعداء الدولة العثمانية، كما اجتمعت إلى هذه الأخطار الداخلية والخارجية كوارث طبيعية

---

(١) عبد اللطيف بن دهيش، مرجع سابق، ص ٥٧

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٤٨، ٤٩

تمثلت في عدد من الزلازل ضربت الأستانة فهدمت ما يربو على الألف بيت من بيوت المدينة وعدد كبير من المساجد والقصور، وتهدم جانب كبير من القلاع والسور المحيط بالمدينة، كما زاد المد البحري في القرن الذهبي حتى هدد المدينة ذاتها. وقد أمر السلطان بايزيد الثاني خمسة عشر ألفاً من عماله بإصلاح ما تهدم، الأمر الذي كلف خزانة الدولة مبالغ طائلة. (١)

كان بايزيد الثاني دمث الخلق متواضعاً أديباً عالماً شاعراً محباً للفلك والطبيعة، لم يتخلف عن الغزو طوال حياته، كان ميالاً إلى السلم لذا التف جيشه حول ابنه سليم الذي كان يرى فيه أملاً كبيراً في التوسع وإعادة حركة الفتوحات العثمانية إلى سابق عهدها، وبايعه في إبريل ١٥١٢م وأرغم بايزيد عن التنازل له عن الحكم، فتنازل طائعاً عن العرش لابنه. (٢)

سليم الأول ١٥١٢- ١٥١٩م

وصل سليم إلى العرش وهو شاب صغير السن، فأظهر قسوة للحفاظ على هيبة المنصب، لاسيما ضد الطامعين في العرش من آل بيت السلطنة. كان سليم يميل إلى مرافقة العلماء والشعراء والمؤرخين حتى في ميادين القتال ربما لتسجيل أحداث المعارك.

تصدى السلطان سليم لكافة أشكال الفساد في الدولة، فعندما حاول شمسي باشا العجمي – أحد أعمدة الإدارة من زمن السلطان بايزيد الثاني– التوسط لأحد رجال الإدارة كان قد فقد منصبه وأراد العودة إليه، قال شمسي باشا للسلطان سليم: عبدك فلان المعزول من منصب كذا وليس بيده منصب الآن قصده من فيض إنعامكم عليه المنصب الفلاني ويدفع إلى الخزينة كذا وكذا، فعلم السلطان سليم أنها مكيدة من شمسي باشا لإدخال الرشوة إلى بيت السلطنة فتغير وجهه وقال له: "يا رافضي تريد أن تدخل

---

(١) يوسف آصاف، مرجع سابق، ص ص ٦٣- ٦٦

(٢) محمد حرب، مرجع سابق، ص ٢٤٩

الرشوة بيت السلطنة حتى يكون ذلك سبباً في إزالتها، وأمر بقتله، غير أن شمسي باشا تفادى الموقف بالخديعة، فقال له هذا اختبار أوصاني به والدك عند توليك الحكم، فهذه وصية والدك فدم عليها. (١)

كان الخطر الصفوي من أول الأخطار التي واجهت السلطان سليم الأول، حيث بدا المذهب الصفوي يتسلل إلى المناطق الشرقية من أملاك الدولة العثمانية بأمر من الشاه إسماعيل الصفوي، الذي أعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لدولته، لذا وضع السلطان سليم التصدي للخطر الشيعي في جدول أولوياته، ونجح بالفعل في إلحاق أول هزيمة بالشاه الصفوي في معركة چالديران ١٥١٤م ودخل على إثرها تبريز عاصمة الصفويين، لكنه انسحب فجأة ولم يتتبع فلول القوات الصفوية، واكتفى من الغنيمة بتطهير المناطق الشرقية من الشيعة، وكانت هزيمة چالديران كافية لإبعاد الخطر الصفوي عن أملاك دولته. (٢)

وعلى غير المتوقع تحول السلطان سليم الأول بالنشاط الحربي للدولة العثمانية من الميدان الأوربي إلى المشرق العربي، حيث أملاك دولة المماليك، فاستولى على الشام عقب انتصاره على السلطان قنصوه الغوري في مرج دابق ١٥١٦م، ثم استولى على مصر بعد انتصاره على المماليك الجراكسة في الريدانية ١٥١٧م وقتل طومان باي، ولم يحدث العثمانيون تغييرات إدارية كبرى في مصر والشام حيث أسندت الإدارة إلى الكوادر الإدارية المملوكية التي أعلنت ولاءها للسلطان العثماني. وسرعان ما أعلن شريف مكة المكرمة ولاءه للسلطان العثماني وسلمه مفاتيح الكعبة ليصبح خادماً للحرمين الشريفين وتنضوي الحجاز تحت السيادة العثمانية، ولم

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م) جـ١، ص ٣٨

(٢) لمزيد من التفاصيل: راجع الفصل الرابع من هذه الدراسة

يمض زمن طويل حتى وصل النفوذ العثماني إلى اليمن ليفرض سيطرته على البحر الأحمر ويتصدى للخطر البرتغالي.[١]

سليمان القانوني ١٥٢٠- ١٥٦٦م

نشأ سليمان محباً للعلم والأدب، تولى حكم السلطنة بعد وفاة والده وعمره آنذاك ٢٦ عاماً، عرف بين أقرانه منذ الصغر بالجد والصرامة وحب العلم والتريث، تعد فترة حكمه الطويلة (٣٦ عاماً) العصر الذهبي للدولة العثمانية إذ بلغت أوج توسعاته شرقاً وغرباً، وتمكن من تأديب الخارجين وتأمين حدود الدولة وعاد النشاط مجدداً للميدان الأوربي؛ ففي بداية حكمه زادت عمليات القرصنة التي كان يمارسها فرسان القديس يوحنا في شرقي البحر المتوسط ضد السفن العثمانية التجارية وتلك التي تحمل الحجاج العثمانيين، وبالتحديد من جزيرة رودس، لذا قرر السلطان سليمان فتح الجزيرة، فاستغل انشغال أوربا بالحرب بين الإمبراطور الروماني وملك فرنسا، وكذلك الهدنة مع البندقية وأمر البحرية العثمانية بفتح الجزيرة عام ١٥٢٢م فتمكن من فتحها، وطرد منها فرسان القديس يوحنا، فتوجهوا إلى مالطة.[٢]

وعندما تنكر ملك المجر لتعهدات أسلافه ورفض دفع الجزية السنوية المقررة، قرر السلطان سليمان غزو بلاده، وكان الملك فيلاديسلاف الثاني ملك المجر قد قتل مبعوث الدولة العثمانية إليه لتحصيل الجزية، خاضت القوات العثمانية سلسلة من المعارك طويلة الأمد ضد المجر استمرت طوال الفترة من ١٥٢١- ١٥٢٩م، حققت القوات العثمانية عدة انتصارات أهمها معركة موهاكس سنة ١٥٢٦ ووصلت إلى أسوار فيينا، لكن طول فترة القتال وانتهاء الحرب بين الإمبراطور الروماني وملك فرنسا أدى إلى تكتل الجبهة

---

(١) لمزيد من التفاصيل: راجع الفصل الرابع من هذه الدراسة

(٢) عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص ١٤٦

الأوربية ضد النشاط الحربي العثماني في المجر، فاضطرت القوات العثمانية إلى فك الحصار، ولكن استمر العداء بين السلطان سليمان والمجر طوال فترة حكمه.[١]

واجه السلطان سليمان خلال فترة حكمه عددا من حركات التمرد والانفصال، كان أولها في بلاد الشام بزعامة جان بردي الغزالي الذي حاول أن يستقل بحلب، فتمكنت القوات العثمانية من قمع التمرد وقتل جان بردي وأرسلت برأسه إلى استانبول. وشهدت مصر المحاولة الثانية بقيادة أحمد باشا (الخائن) والي مصر الذي كان يطمع في الصدارة العظمى، فلما اكتفت الإدارة العثمانية بتوليه منصب والي مصر، حاول أحمد باشا أن يستقل بها سنة ١٥٣٤م، فتصدت له قوات الانكشارية فلقي مصير الغزالي. والتمرد الثالث شيعي قام به شخص يدعى بابا ذو النون في منطقة يوزغاد بعد أن جمع حوله أربعة آلاف من أتباعه، وأعلن العصيان سنة ١٥٦٢م واستطاع أن يلحق الهزيمة ببعض القوات العثمانية، لكن تمكنت القوات العثمانية في نهاية الأمر من هزيمته وقتله وإرسال رأسه إلى العاصمة. وجاء التمرد الرابع شيعي أيضاً على غرار التمرد الثالث في منطقتي قونيه ومرعش، قاده قلندر جلبي الذي جمع حوله ثلاثين ألف مقاتل، وتغلب على القوات العثمانية، ولم تستطع الدولة مواجهته إلا بعد أن استمالت بعض أتباعه ثم ألحقت به الهزيمة وقتل. [٢]

أما علاقات السلطان سليمان القانوني الخارجية فكانت في أفضل صورها مع ملك فرنسا، إذ جمع بينهما العداء للإمبراطور الروماني، وقد توجت هذه العلاقة بمعاهدة الامتيازات ١٥٣٥م، والتي نصت على حرية النقل والملاحة بين البلدين بما فيها السفن العسكرية، حق رعايا فرنسا في

---

(١) عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص ١٤٧

(٢) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ٢٢١، ٢٢٢

ممارسة التجارة في البلدان التابعة للدولة العثمانية، معاملة رعايا فرنسا من حيث الرسوم الجمركية في الأراضي العثمانية بمثل ما يحاسب به رعايا الدولة العثمانية، مع دفع الرسوم الجمركية مرة واحدة فقط، ونص الاتفاق على حق التمثيل القنصلي وتمتع القنصل والعاملين معه وأسرته بالحصانة الدبلوماسية، وللقنصل الفرنسي حق النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون رعاياه أطرافها، وتساعده السلطات المحلية في تنفيذ هذه الأحكام، وفي القضايا التي تجمع بين رعايا الدولة العثمانية ورعايا فرنسيين، يكون من حق الرعايا الفرنسيين التحاكم في حضور مترجم من القنصلية، وللرعايا الفرنسيين حرية ممارسة العبادة في أرض الدولة العثمانية. (١)

والمعاهدة مكسب اقتصادي وسياسي كبير لفرنسا في أراضي الدولة العثمانية، تطورت لتصبح فرنسا راعية لمصالح رعايا الدول الأوربية في الأراضي العثمانية، ومع ضعف الدولة العثمانية أصبحت هذه الامتيازات مدخلاً لتثبيت أقدام فرنسا في بلاد الشام، وفي المقابل لا نجد لهذه الامتيازات أي جدوى للمصالح العثمانية في الأراضي الفرنسية.

وهكذا بدأ عصر القوة والازدهار بوصول محمد الفاتح إلى سدة الحكم وتوج بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، واستمر في عهد بايزيد الثاني لتصل الدولة إلى أوج توسعها في الجانب الأوربي. وتعد فترة حكم سليم الأول وسليمان القانوني امتداد لفترة القوة والازدهار في تاريخ الدولة العثمانية، لكن انتقل ميدان التوسع العثماني من أوربا إلى المشرق الإسلامي (العربي) ليشكل فصلاً مستقلاً بذاته، وخلال هذه الفترة وصلت الدولة إلى أوج توسعاتها ونجح سلاطينها في الحفاظ على هيبة الدولة والتصدي لتسلل عوامل الضعف إلى كيان الدولة.

---

(١) يوسف علي الثقفي، موقف أوربا من الدولة العثمانية (نشر خاص، ١٩٩٧م) ص ١٤٦

الفصل الثالث

جوانب من

الحضارة العثمانية

اعتاد المؤرخون الحديث عن الجوانب السياسية في حياة الدولة العثمانية وتوسعاتها في أوربا والمشرق الإسلامي وأهملوا الجوانب الحضارية، فقليل منهم من تطرق لبعض هذه الجوانب، ورأينا أن نخصص فصلا كاملا للحديث عن هذا الجانب لأهميته، فالدولة العثمانية التي اتهمها المرخون غير المنصفين بأنها دولة بربرية ارتكبت من الجرائم ما روّع أوربا، فأردنا أن نقدم هذه الصفحة الحضارية من تاريخ الدولة العثمانية للرد عليهم، فتحدثنا فيها عن نظم الحكم والإدارة والهيئة الإسلامية في الجهاز الإداري، ثم تكلمنا عن الجيش والأسطول والنظم العسكرية، وتناولنا بالتحليل مصادر الجند لاسيما ضريبة الدم التي ثارت حولها شبهات كثيرة، كانت تهدف أن تسيء للدولة العثمانية والإسلام. ثم خصصنا عنوانا للعلوم والفنون والعمارة، وتحدثنا عن وضع أهل الذمة في العصر العثماني.

نظم الحكم والإدارة:

انقسم المجتمع العثماني إلى مجموعتين ضمت المجموعة الأولى الإداريين والعسكريين وعلماء الدين، في حين شكل الرعية كيان المجموعة الثانية، كانت المجموعة الثانية مسئولة عن الإنتاج ودفع الضرائب، في حين كانت المجموعة الأولى منشغلة بتنظيم أمور الدولة وتسييرها وحماية حدودها. واستمدت الدولة نظم الحكم والإدارية من عدة مصادر جاء في مقدمتها النظم البيزنطية التي قامت الدولة على أنقاضها، ولعل هذا يفسر استخدام عدد كبير من الأرمن في أجهزة الدولة الإدارية، وانضبط هذا الميراث بضوابط شرقية إسلامية، كما تأثرت النظم العثمانية بالبيئة الأصلية التي انحدر منها العثمانيون، بيئة وسط آسيا، وأخيراً تأثرت النظم العثمانية بالنظم الفارسية والعربية، الذي جاء نتيجة الاحتكاك بين العنصرين التركي والفارسي في البلاط العباسي.

واتسمت نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية بسمات عامة ثلاث هي:

الطابع الحربي:

وهذا طابع أصيل لازم الأتراك منذ فجر تاريخهم، نتيجة الصراع على الماء والمرعى، ثم تأصل فيهم إبان إقامتهم على تخوم العالم الإسلامي كإمارات حدود على خط التماس مع الدولة البيزنطية، وامتهنوا هذا العمل لصالح السلاجقة فترة طويلة من الزمن، ثم كان ظهورهم كقوة سياسية في منطقة التخوم مصطبغاً بصبغة حربية، وتركزت جهودهم على التوسع على حساب الدولة البيزنطية، وظلت الصبغة الحربية ملازمة للدولة العثمانية طوال تاريخها.

الطابع الديني:

كرست بيئة التخوم والصراع الإسلامي الصليبي طابعاً دينياً لإمارات الحدود، ومنها إمارة آل عثمان، لذا رفعت الدولة العثمانية منذ البداية شعار الإسلام وأعلنت تطبيق الشريعة الإسلامية، وظل هذا الإعلان مرافقاً للدولة طوال تاريخها، بصرف النظر عن مدى تطبيق الشريعة الإسلامية في كل مرحلة من مراحل تطور الدولة. كانت الدولة العثمانية سنية على مذهب أبي حنيفة، وسمحت للمذاهب الأخرى بالوجود، لذا لعب المفتي أو شيخ الإسلام دوراً كبيراً في الدولة. وأخذت الدولة بالعرف كمصدر من مصادر التشريع مادام لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وهذا يفسر وجود بعض التنظيمات الصادرة عن السلاطين ذات الجذور البيزنطية أو الفارسية المتوارثة والمتعارف عليها في هذه البيئة.

الحكم المطلق:

اتسم الحكم العثماني بالحكم المطلق، شأنه في ذلك شأن الإمبراطوريات والملكيات المعاصرة آنذاك في أوربا التي شهدت حكماً مستبداً عرفت

بالملكيات المستبدة مستندة إلى الحق الإلهي، ثم تطورت بعد ذلك على ملكيات مستبدة مستنيرة، بل عن الحكم العثماني تميز عن ملكيات أوربا بأن سلطة الحاكم المطلقة على رعيته كانت مقيدة إلى حد ما بأحكام الشريعة وفتاوى العلماء وبعض المبادئ المتوارثة، صحيح جمع السلاطين في أيديهم ميزات اقتصادية وصلاحيات إدارية أساء البعض منهم استخدامها، لكن حتى هذه السلبية وجدناها في كافة الأنظمة الحاكمة إلا في فترات محدودة جداً وأشخاص معدودين على مدار التاريخ.

أما الهيئة الإدارية الحاكمة فضمت السلطان والإدارة المركزية

تربع ***السلطان العثماني*** على قمة التنظيم الإداري والعسكري، في دولة اعتمدت مركزية السلطة، فسيطرت على كل أجهزة الدولة، وارتكز السلاطين إلى حق مستمد من الشريعة في دولة عسكرية، فالسلطان يقوم برعاية مصالح رعاياه، فيحفظ التخوم ويحمي المقدسات وينظم الحج، ويخضع في الوقت نفسه للشريعة بشكل مرن، يختلف من حاكم إلى آخر، حسب ورعه. ويتمتع السلطان بسلطة دنيوية وأخروية شبه مطلقة، لا يقيدها من الناحية النظرية سوى شيخ الإسلام (المفتي) لكنها سلطة شكلية من الناحية العملية، فالسلطان له حق تعيين المفتي وخلعه أنى شاء، فهل سيخضع له فيما يخالف هواه؟!! لكن التزام سلاطين آل عثمان بالشريعة الإسلامية أضفى مهابة على منصب شيخ الإسلام ووقاراً. كانت السلطة التشريعية للسلطان تأتي بعد مصادر الشريعة الأساسية؛ القرآن والسنة وجمهور العلماء. وقد حصل كثير من السلاطين على خبرة إدارية كأمراء في الولايات قبل تولي العرش، وكان التنافس على العرش كبيراً بين الإخوة أحياناً. كان السلطان

يرأس جلسات الديوان حتى عهد الفاتح، كما كان يقود الجيش حتى عهد سليمان القانوني. [١]

وينص القانون الأساسي لتولي العرش في الدولة العثمانية على أن يتولى العرش أكبر أفراد الأسرة سناً، وعلى الرغم من كون هذا النظام يضمن عدالة في وراثة العرش لكنه له أضرار أخرى كثيرة أهمها أنه قد يأتي إلى الحكم بمن هم ليسوا أهلا له من حيث الكفاءة، وقد انتقد السلطان عبد الحميد هذا النظام في مذكراته قائلاً: " إن عادة وراثة كبير العائلة التي ينص عليها القانون التركي كانت شؤما على عائلتنا، والصفحات الدامية في تاريخنا أتثبت ذلك ... يجب أن يكون ابن السلطان وليس كبير العائلة هو وريث العرش، فالمنافسة بين الإخوة والبناء أزكت نار الضغينة بين أفراد العائلة أنفسهم، ومؤامرات بعض البشوات الطامعين ولدت كثير من المآسي، وكم كنت تعيس الحظ عندما أبعدوني عن الدنيا ومنعوني من تعلم أي شيء في شبابي خشية أن أكون يوماً منافساً لولاية العهد، وفي سبيل تغيير قانون ولاية العهد تقدمت ثلاث مرات لشيخ الإسلام لكنه خشي من تحمل المسؤولية" [٢]

ويعيش السلطان في قصر عرف بالبلاط أو السراي، مقسم من حيث المباني إلى مقر للحريم (حرملك) وبلاط داخلي وبلاط خارجي، تفصل بينها غرف يقتنها خدم للسلطان؛ ويتسع الحرملك لأربعة نساء بخدمهن وأولادهن، كل منهن معزولة تماماً عن الأخريات، فمعظم سلاطين آل عثمان عددوا في زواجهم. ويضم مقر الحريم أيضاً أماكن خاصة للجواري (ملك اليمين) ولم يزد أي من سلاطين آل عثمان عن أربعة جواري، تمتعن بحياة أسرية

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني (دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣م) ص ص ١٠٥- ١١٢

(٢) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية ١٨٩١- ١٩٠٨ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص ص ٣٧، ٣٨

كريمة، ولا يدخل مقر الحريم سوى السلطان والخادمات والخدم من الأغوات. أما البلاط الداخلي فيعقد فيه السلطان جلساته مستتراً عن العامة، أما البلاط الخارجي فيعقد فيه السلطان مقابلاته واجتماعاته.

ويأتي في قمة النظام الإداري بعد السلطان ***الصدر الأعظم*** ويمثل السلطان في أمور الدولة، ويسمى الوزير الأول أو الوزير الأعظم، وهو أحد أربعة وزراء يشكلون السلطة العليا في الدولة. كان الصدر العظم في البداية مجرد مستشار للسلطان، ثم تزايد نفوذه بمرور الوقت مع تزايد مشاغل السلطان، حتى جعله السلطان محمد الثاني في قانون نامه الأساسي للدولة رئيساً للوزراء والأمراء وصاحب السلطة المطلقة في إدارة شؤون السلطنة، وكان يظهر في حاشية تليق بمقامه كنائب للسلطان. ظهر منصب الصدر الأعظم لأول مرة في عهد أورخان وتولاها شقيقه علاء الدين، وانحصر الصدور العظام حتى فتح القسطنطينية في بيت جاندارلي، أما بعد الفتح أصبح الصدر الأعظم يعين من كبار رجال الدولة من العبيد الدفشرمة، وكان رضا السلطان عن الصدر الأعظم هو الضمان الوحيد لاستمراره في العرش. ويحمل الصدر الأعظم خاتم السلطان، وانتزاع هذا الخاتم منه يعني خلعه من منصبه، كان الصدور الأوائل يضعون هذا الخاتم في إصبعهم، أما في العصر المتأخر فكانوا يضعونه في جيوبهم في حافظة من القماش مذهبة.[١]

وينوب عن الصدر الأعظم في الأمور الداخلية والعسكرية الكخيا بك، يساعد الصدر الأعظم كبير الجاويشية (جاويش باشي) ويقوم مقام مدير أعمال الصدر الأعظم فينظم الجلسات ويعد ملخصات الموضوعات المدرجة في جدول أعمال الجلسة اختصارا لوقت الصدر الأعظم.

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٥٠- ٥٥

وينظم السلطان أمور دولته ويسيرها من خلال ***الديوان الهمايوني***، ويحضر جلسات الديوان مع السلطان الوزراء الثلاثة وقاضيا العسكر، فيجلسون عن يمينه، ويجلس الدفتردارات والنشانجية (السكرتارية) إلى يساره، كما يحضر الجلسات رئيس الكُتّاب وكبير الياويران والقائد العام (ساري عسكر) وعدد من موظفي البلاط، وكان بإمكان الصدر الأعظم أن يدعو في قصره إلى جلسات خاصة للديوان، ينوب فيها عن السلطان إذا اقتضت الضرورة. (١)

وفي فترة الضعف والاضمحلال تسلط الصدر الأعظم على مقاليد الحكم، فانفرد بالتعيينات في وظائف الدولة الكبرى، وقيادة الجيوش. ومنذ سنة ١٦٥٤ غدا قصر الصدر الأعظم رمز الإدارة ومركزها الرئيسي، فضم ديوان الحكم بهيكله الإداري، وأطلق عليه لقب بوابة الباشا أو الباب العالي. (٢)

ويشرف ***الدفتردار*** على الإدارة المالية وجمع الضرائب، التي تصب في الخزانة السلطانية، وأهم هذه الضرائب العشور والزكاة والجزية وضريبة الإدارة المحلية التي يحصلها المحتسب من الحرفيين والتجار، والضرائب المفروضة على الضرائب والمراعي. وللسلطان حق التصرف في أموال الخزينة فينفق منها على الأعمال الخيرية ومصالح الدولة. (٣)

وطبق النظام الإداري للدولة في الأقسام الإدارية التابعة لها بصورة مصغرة، فانقسمت الدولة العثمانية إلى عدد من الوحدات الإدارية عرفت ***بالسناجق أو الألوية***، على رأس كل منها سنجق بك (أمير لواء) من الفرسان الإقطاعيين، يمثل السلطان في سنجقه، فينفذ قرارات الحكومة

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٥

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ١١١، ١١٢

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٥

المركزية ويحافظ على الأمن، ويجمع العسكريين من سنجقه أثناء الحرب ويقودهم، ومع اتساع رقعة الدولة جمعت كل مجموعة من السنجقيات في ***ولاية***، وعينت على كل ولاية بكلر بك أو والي بالعربية برتبة باشا. يحصل الوالي على راتب سنوي سمي ساليانه يكفي نفقاته مع حاشيته وجنده، ولم تكن هناك مدة معينة للولاة في البداية، لكن مع فساد الولاة حددت ولايتهم، والوالي له السلطة التنفيذية المطلقة والإشراف على الشؤون الإدارية والعسكرية. ساعد الوالي عدد من الموظفين ارتبط بعضهم به، وبعضهم الآخر كان مستقلاً ومرتبطاً بالأستانة، فمن الموظفين المرتبطين به الكتخدا أو الكاخيا مدير مكتب الوالي، وديوان أفنديسي أو كاتب الرسائل، والمهردار أو حامل الأختام، والخزنة دار أمين الصندوق، والسلاح دار أو حامل السلاح، وأغا البوابين أو الحاجب. أما الموظفين الذين ارتبطوا بالأستانة فهم أغا الإنكشارية، والقاضي والدفتردار (مدير الخزانة) والأخير يشغل المركز الثاني في الولاية، ويشرف على حسابات الأموال الإقطاعية الروزنامه أو ديوان دفتر اليومية برئاسة الروزنامجي يعاونه عدد من الكتبة المسلمين والصيارفة من أهل الذمة. [١]

وتميزت الدولة العثمانية بوجود جهاز إسلامي ضمن جهازها الإداري، ويمثلون الدعامة الثانية بعد العسكريين في كيان الدولة، وقد أشرف العلماء على الأوقاف والتعليم في المساجد والمدارس، كما تولوا مناصب القضاة، وظل قاضيي العسكر في قمة هذا البناء حتى عصر محمد الفاتح، اختص أحدهما بالأناضول والثاني بالبلقان،[٢] ثم ظهر منصب شيخ الإسلام (المفتي) ليعتلي قمة الجهاز الإسلامي، ويستشيره السلطان في القوانين، ليضمن أنها موافقة للشريعة الإسلامية. ويرأس شيخ الإسلام "الفتوى خانة"

([١]) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٥٥– ٥٧

([٢]) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٤

أو دار الإفتاء، ويلجأ إليه السلطان لبيان الحكم الشرعي في كل مسائل الدولة وبخاصة حروبها، وأحكام المفتي نهائية ويخضع لها السلطان من الناحية النظرية،[١] كما أوضحنا سلفاً، لأن السلطان يعينه ويعزله متى شاء، فأنى له أن يخضع لفتواه إن خالفت هواه. ويتضمن الجهاز الإسلامي الأشراف الذين ينتمون إلى نسل النبي صلى الله عليه وسلم وهؤلاء يتوارثون الشرافة، ويتميزون بارتداء عمامة خضراء، ويرأسهم نقيب الأشراف ويتمتع بمكانة اجتماعية كبيرة في الدولة، ويتم اختيار شريف مكة من بينهم. [٢]

كان محمد الفاتح أبرز سلاطين آل عثمان الأوائل تنظيماً للأمور المالية والإدارية، لثقافته التاريخية وقراءاته في تاريخ الأمم، فعمل على تحديد موارد الدولة وضبط طرق الإنفاق ليمنع الإسراف والبذخ، وعمل على تطوير إدارة الأقاليم، فأقر بعض الولاة السابقين في مناصبهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال أو جور على الرعية، أما الجهاز الإداري الخاص بالبلاط السلطاني فعمل على تطويره ومده بالخبرات الإدارية والأمنية، الأمر الذي ساهم في استقرار الدولة. [٣]

أتبعت الدولة العثمانية في أراضي البلقان النظام الإقطاعي المعمول به هناك، ولكن مع تعديلات طفيفة لصالح الفلاح، فاتبعت نظام المركزية الإدارية بدلاً من اللامركزية الإقطاعية التي كانت سائدة من قبل؛ فأبطلت نظام الضرائب والجباية وقسمت أراضي الإقطاعيات التي آلت إلى الدولة إلى تيمارات وزعتها على القادة العسكريين مقابل الخدمة العسكرية، بدلاً عن المرتبات، وتمتع الفلاح البلقاني في ظل الدولة العثمانية بحماية ضد

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٠٧

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٥٨- ٥٩

(٣) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٢٥٣

استغلال السلطات المحلية، فكان الإقطاع البلقاني قبل الدولة العثمانية يطالب الفلاح بالعمل يومين أسبوعياً في أرض السيد الإقطاعي، بينما أقر النظام العثماني أن يعمل الفلاح في أرض السباهي يومين فقط في السنة، لذا انحاز الفلاح البلقاني إلى جانب الدولة العثمانية ولم يقف مع الجيوش الأوربية. [١]

ومن الناحية المالية كانت الولايات الأوربية والأناضولية ولايات تيمارية أي تخضع لنظام الإقطاعيات العسكرية، باستثناء عدد قليل من سناجق الحدود في المناطق الشرقية، أما المناطق العربية فلم ينطبق الإقطاع العسكري إلا على بعض المناطق مثل حلب وطرابلس ودمشق، أما باقي بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا فقد خضعت لنظام الالتزام؛ فكانت الدولة ترسل موظفين تابعين لها يقومون بتقدير الضرائب، ثم تطرح حق الالتزام عن طريق المزاد، فيؤدي الملتزم القيمة المطلوبة للخزانة، وفي المقابل يسانده رجال الإدارة في جباية الضرائب، ولكن سرعان ما فسد هذا النظام، فمارس الملتزم سلطات واسعة في جباية أضعاف الضريبة المطلوبة، ومع إقبال الدولة على زيادة أعداد المشاة على حساب الفرسان حل نظام الالتزام محل الإقطاعيات في بعض المناطق. [٢]

الجيش والنظم العسكرية

شكلت الطبقة العسكرية في الدولة العثمانية أساساً للجيش والإدارة معاً، كان السلطان يشكل هذه الطبقة وينفق عليها ويعفيها من الضرائب، وقد مر الجيش العثماني بعدة محطات في نشأته وتطوره ارتبطت بتطور الدولة؛ فاعتمد عثمان (المؤسس) على جيش من المجاهدين المتطوعين، لكن أمراء آل عثمان من بعده بداية من أورخان اعتمدوا على جيش نظامي قوي، له

---

(١) إبراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص ص ٨٧، ٨٨

(٢) أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ص ١١٩– ١٢١

مناطق تركز يتدرب فيها، هذا الجيش مكون من وحدات صغيرة من عشرة أفراد، تنخرط في وحدات أكبر في متوالية تصل الوحدة الكبرى في النهاية إلى ألف مقاتل، وخُصص خُمس الغنائم للإنفاق على هذا الجيش.[١]

عمل محمد الثاني قبيل فتح القسطنطينية على تطوير كتائب الجيش وإعادة تنظيمها، ووضع سجلات خاصة بالجند وزاد من مرتباتهم، وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة آنذاك، كما استعان بخبراء أوربيين في بناء اكبر مدفع آنذاك ليواجه به حصون القسطنطينية ودفاعاتها. [٢]

اعتمد أمراء آل عثمان على القطاع العسكري في التوسع والإدارة، ويتكون هذا القطاع من أفراد جاءوا إلى الدولة من، مع دعم ثقافي إسلامي. وقد أثيرت كثير من الشبهات حول مصدر تشكيل هذا الجيش، فالشائع بين الباحثين أن مصدر هذا الجيش من ضريبة الدفشرمة أو الديوشرمه وتعني في التركية ضريبة الدم، أوردها عدد من مؤرخي الغرب وأشهرهم جيبونز وكارل بروكلمان وليبير، وتبعهم عدد كبير من المؤرخين العرب، وتعني ضريبة الدم أن العثمانيين أقروا ضريبة بشرية تقضي بأخذ خمس أبناء المسيحيين المنهزمين في البلقان بين سن السادسة والعاشرة، وقد اتخذها المستشرقون قضية لمهاجمة العثمانيين، باعتبارها ضريبة قاسية فرضت على المنهزمين.

وقد دافع البعض عن الديوشرمه باعتبارها ظاهرة منتشرة في منطقة البلقان قبل الحكم العثماني وليست بدعاً من أمر العثمانيين، كما أنهم أعفوا منها وحيد أبويه، وأن الأهالي كانوا يدفعون بأبنائهم للالتحاق بهذا الجيش لما ينتظرهم من مستقبل عظيم في السلكين العسكري والإداري.[٣] ويحاول

---

(١) عبد اللطيف بن دهيش، مرجع سابق، ص ٢٢

(٢) علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص ١٠٠

(٣) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، هامش ص ٤٢

البعض نفي القضية، معتبراً أن مصدر الإنكشارية كان من الأطفال المسيحيين المشردين الذين فقدوا أهلهم في الحروب مع العثمانيين، فتلقفتهم أيدي الإدارة العثمانية لتحميهم من التشرد والضياع.(١) لكن الحقيقة التي يجب أن نلتفت إليها جميعاً أن خبر هذه الضريبة ورد في المصادر الغربية وتلقفه مؤرخون عرب دون التدقيق في المصدر، وهي قضية يصعب التسليم بها دون دليل قاطع، كما أن مصدر هؤلاء الغلمان لا يقتصر على ضريبة الغلمان، وإنما كانت تأتي من أسرى الحرب وهو مصدر خصب لاسيما في فترة القرون الثلاث الأولى من حياة الدولة، ومن المصادر الخصبة لهؤلاء الغلمان أيضاً الأطفال الذين يأتون من أسواق الرقيق، وهي تجارة كانت رائجة آنذاك، وكذلك الهدايا التي تأتي إلى السلطان. (٢)

وفي الواقع جفت منابع الإنكشارية في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، ويذكر أحد كبار المؤرخين المسلمين أن كلمة الدفشرمة غدت منذ ذلك التاريخ كلمة جوفاء، وسمح للإنكشارية منذ ذلك الحين بالزوج والإنجاب، والتحق أولادهم بهذا الجيش.(٣) وفي هذا دليل كبير على أن مصدر هؤلاء الغلمان كان من أسرى الحرب مع غير المسلمين ومن تجارة الرقيق، وهما المصدران اللذان أخذا في النضوب تدريجياً؛ فالحروب العثمانية الهجومية مع الدول الأوربية توقفت أو كادت تتوقف في هذا التاريخ، أو على الأقل تساوت الكفتان فلم يعد للعثمانيين الغلبة فيما نشب من حروب آنذاك، أما تجارة الرقيق فقد أخذت في التراجع عالمياً، ولو كان مصدر هؤلاء الغلمان من ضريبة الدم ما نضب في هذا الوقت الذي كانت الدولة تسيطر فيه على شرق أوربا كله.

---

(١) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ٦٨

(٢) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ص ١٢٠– ١٢٢

(٣) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١١٤

قسم الغلمان إلى ثلاث مجموعات المجموعة الأولى تتلقى تعليماً خاصاً للخدمة في القصور السلطانية، والمجموعة الثانية تعمل في الجهاز الإداري، فمنهم من يصل إلى حكم المدن ومنهم من يصل إلى الصدارة العظمى، أما الجانب الأعظم فيتربون تربية عسكرية صارمة ليشكلوا قوام جيش الإنكشارية. [١]

الإنكشارية:

كان الإنكشارية أحد أهم فرق العبيد في الجيش العثماني، وهي فرقة من المشاة مدربة تدريباً عسكرياً شديداً على أساليب القتال بالسلاح الأبيض والسلاح الناري، فعلى الرغم من قلة أعداد هذه الفرقة مقارنة بغيرها فقد حازت مكانة عالية في الدولة، لسببين؛ الأول إتقانهم لفنون القتال، وثانيها لاهتمام كافة الدول المحيطة بسلاح الفرسان على حساب المشاة، فكانت هذه الفرقة تمثل نموذجاً فريداً في تسليحها وتدريبها وقوتها، استعانت بهم الدولة في الجيش وقت الحرب، وفي حفظ الأمن وقت السلم، كما قاموا بحراسة مرافق الدولة في المدن والحصون والقلاع. وقد زاد محمد الفاتح رواتب الإنكشارية عقب فتح القسطنطينية، تزايدت قوتهم حتى شكلوا قوة سياسية في الدولة سببت كثير من الاضطرابات في فترة الاضمحلال، إذ حاول السلاطين الضعاف عند توليهم السلطة توزيع النقود على الإنكشارية لضمان ولائهم.[٢] وكان يقود فصائل الإنكشارية أغا يسمى أغا الإنكشارية، يأتمر بأمر السلطان العثماني، وقد ساهمت هذه القوات مساهمة كبرى في فتوحات القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وأسند إلى أغا الإنكشارية مهمة حفظ الأمن في العاصمة. [٣]

([١]) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٥٢، ٥٣

([٢]) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١٢٤، ١٢٥

([٣]) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٥٢، ٥٣

حظيت الطبقة العسكرية بمكانة متميزة في الدولة في جانبيها الإداري والعسكري، ولم يكن أحد باستطاعته أن ينخرط في هذه الطبقة من خارجها، وإن كان السلطان يستطيع أن يرفع أحد رعاياه – من خارج هذه الطبقة– إلى أعلى المناصب، إذا قدم للدولة خدمات جليلة، لكنها كانت حالات نادرة، كما كان بإمكان السلطان أن يصدر مرسوماً بعزل أحد العسكريين وسلبه سلطاته، ومن ثم تجريده من حصانته، إذا ثبتت مخالفة تصرفاته لنظم الدولة أو أضر بمصالحها. (١)

لم يزد عدد قوات الانكشارية في الدولة العثمانية عن عشرين ألفاً حتى عهد مراد الثالث، وعلى الرغم من ذلك كانوا هم سادة الدولة والمسيطرين على المناصب الكبرى في الدولة، ومع تزايد نفوذهم وثوراتهم قرر مراد الثالث إدخال مجندين غير مدربين بكثرة في هذه الفرقة، بهدف إضعاف تنظيمهم، فوصل عددهم في نهاية القرن السادس عشر إلى ثمانية وأربعين ألف مقاتل، وسُمح لهم بالزواج والاندماج في المجتمع وإلحاق أبنائهم بهذه الفرقة لتعويض النقص. وبحلول القرن الثامن عشر لم تعد الإنكشارية مجرد فرقة عسكرية، وإنما طبقة اجتماعية تمارس الحياة المدنية بكافة أنشطتها. (٢)

السباهي (الخيالة)

وأياً كان الأمر فقد شكلت فئة الأطفال مجهولي الأصل فئة عسكرية وإدارية متميزة في الدولة، على الرغم من أصولهم غير التركية لكن الجهاز الحاكم في الدولة صبغهم بصبغة تركية، كانت فئة من هؤلاء تسمى سباهي (خيالة) تم تنظيمهم على أسس شبه إقطاعية، فكانت الدولة تمنحهم إقطاعيات من الأرض يستغلونها مقابل تلبية داعي الجهاد على رأس عدد

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٤

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١١٤

من الفرسان مجهزين، يتناسب عددهم مع عائد الإقطاعية، وقسمت الإقطاعيات على ثلاث فئات:

تيمار: ويسمى صاحبه تيمارجي، ويدر التيمار على صاحبه مبلغاً قدره ما أكثر من ألفين وأقل من عشرين ألف أقجة[١] في العام ويخضع لتفتيش رجال الحكومة، لتحديد قيمته، ومن ثم تحديد عدد الفرسان والقوات التي يقدمها صاحب الإقطاع.

زعامت: ويطلق على صاحبه زعيم، ويدر الزعامت مبلغ أكثر من عشرين ألف أقجة في العام، ويخضع أيضاً لتفتيش رجال الحكومة، لتحديد قيمته.

خاص: وهو أكبر من الزعامت وهو خاص بالولاة في الأقاليم، ولا يخضع لتفتيش رجال الحكومة.

ولبيان قيمة هذه الإقطاعيات نقول أن هذه الإقطاعيات قدمت للدولة في ذروتها، في عهد سليمان القانوني مائة وثلاثين ألف فارساً، ثمانين ألفاً من الجانب البلقاني وخمسين ألفاً من الجانب الأناضولي. وقد ساعد الإقطاع الحربي في زراعة مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية، كما وفر للدولة وقت الحرب قوة من الفرسان تبلغ حوالي مائتي ألف فارس، دون تحمل أية نفقات، كما خلصها من دفع رواتب هؤلاء، فوقت الدولة نفسها من أزمات محققة لقلة المعادن النفيسة من ذهب وفضة تصنع منها العملة، ولاسيما عندما تدفقت أطنان من هذه المعادن على أوربا نتيجة الكشوف الجغرافية. ويذكر أن ربط العسكريين العثمانيين بالأرض الزراعية خفف من الطابع العسكري للوجود العثماني، وأضفى على فتوحاتهم طابعاً اقتصادياً، ووفر على الدولة عبء جمع الضرائب من الفلاحين، ويمكن القول أن الإقطاع العسكري العثماني شكل نظاماً اقتصادياً واجتماعياً، شكل جزءاً لا

---

(١) الأقجة عملة فضية تركية

يتجزأ من كيان الدولة، وقد انهار سلاح الخيالة الذي يعتمد على الرمي بالنبال مع تقدم الأسلحة النارية، وقد رفض الخيالة استخدام الأسلحة النارية، فكانوا أشبه بالمماليك، فلم يعد لنظام الفرسان وزن كبير في الجيش، وإنما حل محله في الأهمية نظام المشاة المسلحون بأسلحة حديثة، فتوسعت الدولة في نظام الأراضي الزراعية القائم على جمع الضرائب، لتوفير مرتبات هؤلاء الجند، فاضمحل نظام الإقطاعيات العسكرية تدريجياً وحل محله نظام الالتزام. (١)

الأسطول:

جاء إنشاء الأسطول العثماني متأخر عن باقي الأسلحة، فلم يأت إلا بعد الاحتكاك مع البنادقة في الجانب الأوربي، لذا جاء الأسطول العثماني على غرار الأساطيل الإيطالية، كما اعتمد في بداياته على قراصنة البحر من أبناء المناطق التي خضعت للعثمانيين، وبعد أن اتسعت رقعة الدولة وشملت معظم بلدان المشرق العربي غدا للدولة العثمانية أسطول كبير في البحرين المتوسط والأحمر. والحقيقة التي لا مراء فيها أن الدولة العثمانية اعتمدت على الجيوش البرية بشكل أساسي واقتصر دور الأسطول على حماية البسفور والدردنيل ونقل القوات العثمانية عبر البحار، ولم يكتمل الأسطول إلا في عهد خير الدين بارباروسا، وحصل قائد الأسطول آنذاك على لقب بكليربك. (٢)

العلوم والفنون

اهتم أمراء آل عثمان ببناء المعاهد العلمية، كما اهتموا بالعلماء والمعلمين، فكان في كل قرية مدرستها وفي كل مدينة معهداً علمياً أو كلية تعلم علوم القرآن واللغة العربية والتركية والهندسة والفلك والميتافيزيقا

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١١٩، ١٢٠

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٩

والمنطق، فعقب فتح مدينة نيقوميديا (أزميت الحالية) ١٣٢٧م أسس بها أورخان أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داوود القيصري أحد العلماء الأتراك الذين تعلموا في مصر. [١]

حرص سلاطين آل عثمان في معظمهم على تنشئة أبنائهم تنشئة علمية دينية، فعهدوا بهم إلى أهل الثقة من علماء زمانهم، لتعليمهم وتقويم اعوجاجهم بالطرق التي يرونها مناسبة، فلما استعصى أمر محمد خان بن مراد الثاني على معلميه وقد جعله أبوه أميراً على مغنيسيا منذ نعومة أظفاره، طلب السلطان مراد الثاني من الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني وكان شيخاً شديد البأس مع تلاميذه، طلب منه أن يذهب إلى مغنيسيا ليعلم محمداً وإن تطلب الأمر ضربه، فدخل عليه الشيخ في مجلسه وقال أرسلني والدك لأعلمك وأضربك إن تطلب الأمر، فضحك محمد خان ساخراً، فضربه الشيخ ضرباً موجعاً، فعلم أن الأمر جد لا هزل فالتزم وختم حفظ القرآن في زمن قياسي، كما كان للشيخ آق شمس الدين دور كبير في بلورة شخصية محمد خان، فكان لهذه التربية أثرها في حياة محمد خان (الفاتح) [٢]

اهتم كثير من سلاطين آل عثمان بالعلوم والفنون وفتحوا قصورهم أمام الشعراء والعلماء فحولوها إلى أكاديميات علمية، من ذلك السلطان مراد الثاني الذي أحب الشعر وقرب الشعراء ودعاهم لمجلسه مرتين أسبوعياً وأغدق عليهم العطايا وأوجد فرص عمل لبعضهم ليوفر له سبل العيش فيتفرغ لموهبته، لذا أنجب عصره كثير من الشعراء، فكانوا يرافقونه في حروبه. [٣]

---

(١) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ٦٦، ٧٠

(٢) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ١٠٣، ١٠٤

(٣) محمد حرب، مرجع سابق، ص ٢٤٦

–، ضمت هذه المدارس كافة التخصصات في العلوم العقلية التطبيقية والنقلية، يكمل بعضها بعضاً حتى يتخرج فيها الطالب، وخصص للطلاب مكان للإقامة والمعيشة، وأوقف عليها الأوقاف لتوفير نفقات المدارس والطلاب والمعلمين، كما ألحق بهذه المدارس مكتبة زودها بكافة المصادر، وجعل عليها موظفاً متمرساً يسجل الزوار والكتب المعارة والمعادة، وأخضعها للتفتيش. (١)

اهتم محمد الفاتح بترجمة كتب التراث والعلم من اللغات اليونانية والرومانية والعربية والفارسية إلى التركية، وقرب إليه العلماء، فكان بلاطه يقصده العلماء من مختلف أنحاء العالم، فكان يرافقه العالم الرومي جورج أميروتزوس وابنه، فكلفهما بترجمة كتاب بطليموس في الجغرافيا وتحديث الخريطة التي وضعها للعالم القديم، وكان علي القوشجي عالم الفلك والرياضيات الفارسي من أصدقاء الفاتح، وكان يهديه نسخاً من مؤلفاته، وقد أنشأ محمد الفاتح مكتبة في قصره كانت من أشهر مكتبات العالم قبل أن تحترق في عام ١٤٦٥م، ضمت عجائب كتب العالم شرقه وغربه. (٢)

العمارة

اهتم أمراء آل عثمان بداية من أورخان ببناء المساجد والمدارس والقصور والقناطر، فكان في كل قرية مسجدها وفي كل مدينة عدد من المساجد، فبنى السلطان مراد الثاني جامع أدرنه ذو الثلاث شُرف، وبنى بجانبه مدرسة وتكية يطعم فيها الفقراء والمساكين.(٣) وقد ازدهرت العمارة في عهد محمد الثاني (الفاتح) لاسيما بعد فتح القسطنطينية حيث عمرها بالمساجد والمدارس والقصور والحمامات العامة، ودور الشفاء التي زود كل

---

(١) سالم الرشيدي، مرجع سابق، ص ٣٨٤

(٢) سالم الرشيدي، مرجع سابق، ص ٣٩٦

(٣) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ٦٦، ٧٠ ، ٩٩

منها بطبيب أو اثنين حسب حجمها، وصيدلي وخبير بالعيون وآخر خبير بالجراحة، وما يلزمهم من خدم وطباخ عارف بأصناف الأطعمة الصحية، قدمت هذه المستشفيات الخدمات الصحية بالمجان لجميع رعايا الدولة دون تمييز بين جنس ودين. وقد ازدانت الأستانة بسور عظيم مزود بعدد كبير من القلاع، وكانت سمة هذه الفترة الأسوار التي تحمي المدن الكبرى لاسيما العواصم من العدوان. ومن أهم القلاع التي بنيت في الدولة العثمانية قلعة روملّي حصار التي بناها محمد الثاني (الفاتح) في مواجهة القسطنطينية، لتساعد في عمليات الحصار، وبلغ ارتفاعها اثنين وثمانين متراً مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد في الجانب الأسيوي، لتشرفان على أضيق منطقة في البسفور، ولتتحكمان معاً في عبور السفن من هذا المضيق لمنع الإمدادات البحرية عن القسطنطينية. وازدانت القسطنطينية بعدد كبير من المساجد والكنائس الجميلة ومن أشهر مساجدها مسجد الفاتح الذي كان كنيسة أيا صوفيا في العهد البائد وأمر الفاتح بتحويلها إلى مسجد لفتح المدينة عنوة. [١]

([١]) سالم الرشيدي، مرجع سابق، ص ٤١٣

مسجد الفاتح من الداخل

ومن أشهر مساجد الأستانة أيضاً مسجد السلطان أيوب كما يسمونه ، وهو تخليد لذكرى الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري . رضي الله عنه . الذي توفي تحت أسوار المدينة في عمليات الحصار، وكان قد أمر ببنائه هو السلطان محمد الفاتح حين فتح اسطنبول ووقف على قبر أبي أيوب . رضي الله عنه . وكان قد أوصى بأن يدفن عند أسوار القسطنطينية حين كان يحاصرها مع الصحابة والتابعين زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان . رضي الله عنه . وهذا المسجد هو أول مسجد بني في اسطنبول ، ثم أعيد بناء المسجد زمن السلطان سليم الثالث. [١]

(١) http://www.google.com.sa/imgres?imgurl=http://www.darusselam.org

مسجد أبو أيوب الأنصاري في استانبول

ومن أشهر مساجد الدولة العثمانية في الجانب الشرقي، المسجد الكبير في بورصه الذي بناه بايزيد الأول المعروف بالصاعقة

المسجد الكبير في بورصه

أهل الذمة في ظل الدولة العثمانية

اتبع العثمانيون سياسة المصالحة مع أهل الذمة لاسيما المسيحيين، ولم ينحازوا إلى شريحة اجتماعية بعينها، فضمن نظام الملل العثماني حياة شبه مستقلة لكل ملة على حده، فلكل ملة مذهبها ورجال دينها ولغتها ودور عبادتها وأديرتها ومدارسها ومحاكمها المختصة بالأحوال الشخصية، ولا يتدخل أحد في أمورهم المالية، ولرؤساء الملل اتصال مباشر بدار السلطنة، ويعيش رؤساء كل ملة من البطاركة والحاخامين في قصور فخمة لا فرق بينها وبين قصور الأمراء من آل عثمان، كان طبيعياً أن نجد لدى هذه الممل نظامين للضرائب، ضرائب تجمعها الدولة وأخرى يجمعها رؤساء هذه الملل، وأهم هذه الطوائف طائفة اليونانيين وتسمى ملة الروم، يليها الأرمن والصرب والبلغار. وقد تركزت تجارة الدولة العثمانية في يد طائفة اليونان والأرمن واليهود نظراً لانصراف المسلمين إلى عمليات الفتح والتوسع [١]

اعترف العثمانيون بالكنيسة الأرثوذكسية كنيسة رسمية، وأخضعوا الكنيسة الكاثوليكية، فحافظوا على الشخصية المستقلة للكنيسة الشرقية، وهو أمر مهم يفسر أسباب سرعة التوسع العثماني في البلقان. وألحق العثمانيون بالخدمات العسكرية أعداد من أبناء الطبقة العسكرية في البلدان المفتوحة، مع احتفاظ هؤلاء العسكريون بديانتهم الأصلية (المسيحية في البلقان) وتمتع هؤلاء العسكريون بإقطاعيات عسكرية مثل أقرانهم من المسلمين، وتمتع الفلاك Vlashs من بدو صربيا المسيحيين بإعفاء من بعض الضرائب مقابل العمل في حراسة الحدود، وقد خدم هؤلاء في الجيش العثماني دون حاجة إلى اعتناق الدين الإسلامي، فظلت هذه العائلات مسيحيين لثلاثة أو أربعة أجيال، لذا يمكن القول أن أسلمة إقليم مفتوح في البلقان لم يتم بشكل فجائي أو نتيجة تحول راديكالي، لكن تم عبر تطور تدريجي. [٢]

([١]) ماري ملز، **سلاطين بني عثمان** (مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٦م) ص ص ٣١– ٣٣

([٢]) إبراهيم شحاتة، مرجع سابق، ص ص ٨٨، ٨٩

تمتعت الأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وبخاصة المسيحيون منهم بحماية وحرية أفضل من الأقليات الدينية في أوربا، وكان المسيحيون يشكلون معظم الجانب الأوربي وجانب كبير من سكان الأناضول، وقد سمح لهم بتولي المناصب الكبرى في الدولة، كما سمح لكل ملة بحرية ممارسة العبادة واستخدام لغاتهم وتطبيق أحكام شريعتهم في القضايا الأحوال الشخصية، وضمنت الدولة حماية أملاكهم وأرواحهم مقابل دفع الجزية. ووضعت الدولة عليهم بعض القيود مثل عدم استخدام الأجراس في الكنائس، كما حرم عليهم استخدام السلاح وركوب الخيل، وارتدت هذه القليات ملابس تميزهم عن غيرهم. ونتيجة لتسامح العثمانيين مع أصحاب الملل وجد اليهود المضطهدين في أسبانيا والبرتغال وجدوا في الدولة العثمانية ملاذاً آمناً، فهاجروا إليها. (١)

وقد خضع أهل الذمة في الدولة العثمانية لنظام الملل الذي صنفهم على أساس الدين أو المذهب، وكان يطلق على كل مذهب ديني ملة. أعطى السلطان العثماني لرئيس كل ملة سلطة دينية مطلقة في مسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق والميراث والتبني، كما سمح لكل ملة باستخدام لغتها، وكفل لها حرية ممارسة شعائرها التعبدية، وجمع ما يخصها من ضرائب ودفع ما يخصها لخزينة السلطان، وقد فضلت البلقان هذه الاستقلالية الدينية على النظام الذي مارسته أسرة الهابسبورج الكاثوليكية مع الأرثوذكس، وقد رتبت الملل في الدولة العثمانية حسب حجمها كالتالي؛ الأرثوذكس ثم الكاثوليك ثم الأرمن وأخيراً اليهود، ولعب أهل الملل دوراً مهماً في الدولة في الاستئثار ببعض الحرف والمهن كتجارة الذهب ومهنة الصرافة والترجمة. أما الأجانب من رعايا الدول الأوربية المقيمين في الدولة العثمانية فقد نظمت شؤونهم الامتيازات التي أبرمتها الدولة مع الدول الأجنبية التي

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٣٠

يتبعها هؤلاء الرعايا، وكان أول هذه المعاهدات عقد في عهد بايزيد الأول ومحمد الأول مع البندقية وجنوه، وأهمها وأكبرها معاهدة الامتيازات الكبرى Treaty of Capitulations [١] التي عقدها سليمان القانوني مع فرانسوا الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٥م. [٢]

([١]) راجع تفاصيل الاتفاقية في الفصل الثاني من هذه الدراسة، فترة حكم سليمان القانوني

([٢]) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٦٠، ٦١

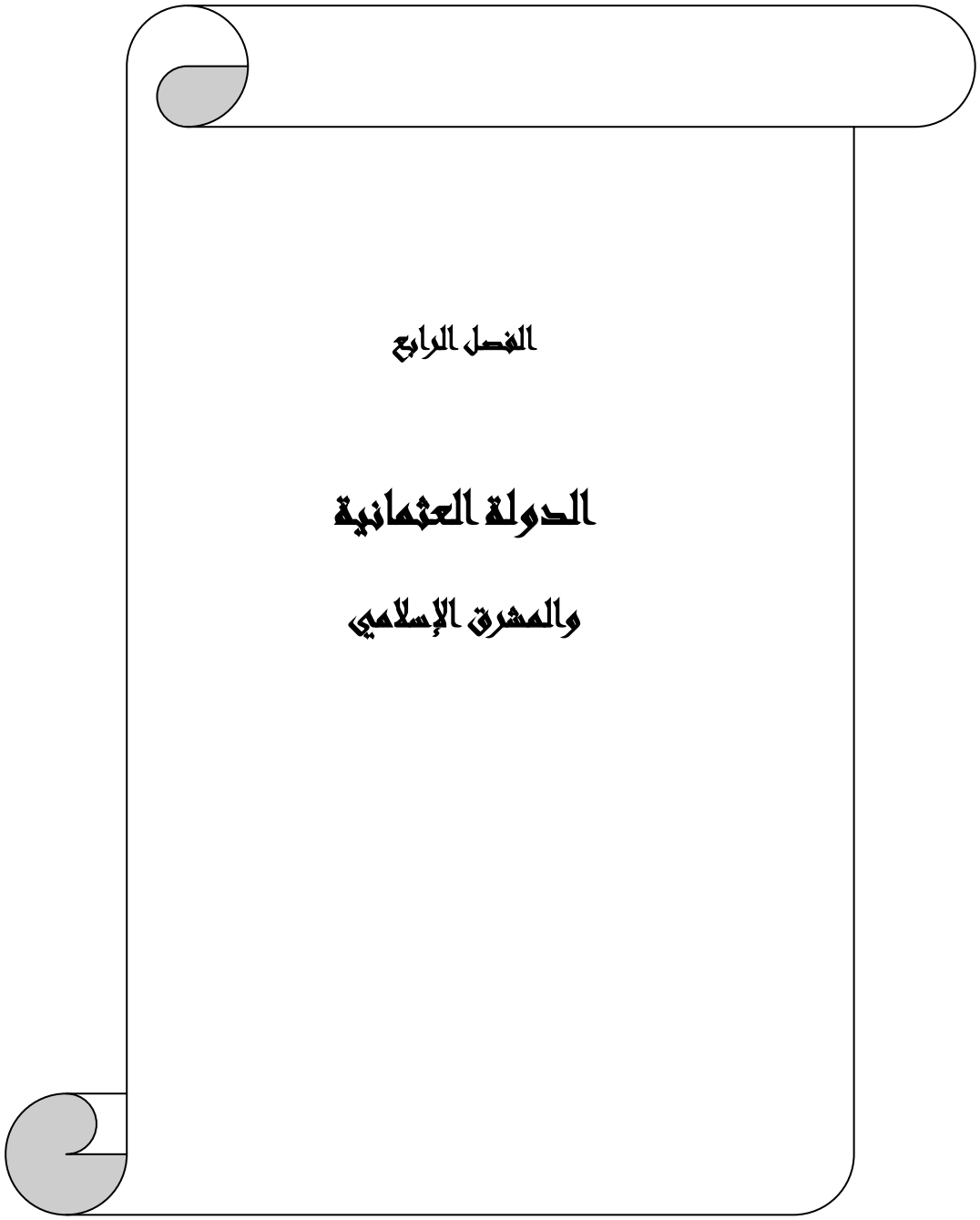

الفصل الرابع

الدولة العثمانية

والمشرق الإسلامي

حاولنا من خلال هذا الفصل أن نجيب على عدة إشكاليات كبرى في تاريخ الدولة العثمانية ألا وهي لماذا اتجهت الدولة العثمانية إلى المشرق الإسلامي وتوقفت توسعاتها في شرق أوربا؟ ولماذا توسع سليم الأول على حساب العالم الإسلامي السني واكتفى بتأديب الدولة الشيعية؟ وهل كان لهذا التوجه آثارا سلبية أم إيجابية على العالم الإسلامي؟ وهل نظر المسلمون للدولة العثمانية آنذاك نظرة المحتل أم المنقذ؟ وفي هذا السياق تتبعنا الحروب العثمانية الصفوية، ثم التوسع العثماني في بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن والجزائر وتونس. ومواجهة البرتغاليين في البحر الأحمر، ثم ضم العراق وشرق شبه الجزيرة العربية.

اتجهت الدولة العثمانية نحو المشرق الإسلامي وتوقفت توسعاتها أو كادت في الغرب الأوربي في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢- ١٥١٩م) الذي وصل إلى سدة الحكم بمساعدة الجيش، بعد إرغام أبيه بايزيد الثاني على التنازل له عن العرش، واتبع سليم الأول سياسة قاسية في تصفية أعدائه ومنافسيه في العرش من إخوته. ويرجع اتجاه الدولة العثمانية نحو المشرق إلى عدة عوامل نوردها بترتيب أهميتها حسب اعتقاد الباحث:

أولاً: تزايد الخطر الشيعي ممثلاً في الدولة الصفوية في بلاد فارس، وتهديدها للمناطق السنية في شرقي الدولة العثمانية والعراق، بمحاولتها بسط المذهب الشيعي في تلك المناطق. [١]

ثانياً: تزايد الخطر الصليبي ممثلاً في البرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر، وتهديده لمقدسات المسلمين في مكة والمدينة، ومحاولة السيطرة على بيت المقدس مرة أخرى من الجنوب، وقد فكرت الدولة العثمانية في مواجهة هذا الخطر بعد فشل المماليك في التصدي له،

([١]) محمد نصر مهنا، **الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي** (المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٠م) ص ٢٤٠

وهزيمتهم في ديو البحرية على يد البرتغاليين سنة ١٩٠٩م، فرأت الدولة العثمانية من واجبها التصدي لهذا الخطر، بوصفها قوة إسلامية كبرى. [١]

ثالثاً: وصول التوسعات العثمانية في الغرب الأوربي إلى أقصاها، ولم يعد المجال يسمح بمزيد من التوسع في هذا الميدان، فكان على السلطان سليم أن يبحث عن جبهة جديدة للتوسع يشبع بها رغبة الجيش الذي كره من أبيه بايزيد الثاني السلام والهدوء وساند سليم عله يتبع سياسة توسعية أكثر نشاطاً. [٢]

العثمانيون والدولة الصفوية:

بدأت الدعوة الصفوية في منطقة أردبيل بشمالي بلاد فارس في القرن الخامس عشر كطريقة صوفية أقرب في طابعها التصوفي إلى المذهب السني من الشيعي، ولم تعلن الدولة الصفوية في مراحلها الأولى عن هويتها الشيعية تقية، لخوف الصفويين الأوائل من المواجهة مع السكان المحليين، ومعظمهم يتبعون المذهب السني، كما أن إيران ضمت نتيجة للهجرات المتكررة من وسط آسيا عناصر متعددة يصعب السيطرة عليها. وكان الشاه إسماعيل أول من أعلن هوية الدولة فأعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة، وأشهر السلاح في وجه معارضيه، وبخاصة علماء السنة، فأرغمهم على اعتناق المذهب الشيعي ولعن الخلفاء الأوائل، ولجأ الشاه إسماعيل إلى تجنيد قبائل القزلباش التركية الشيعية فجعلها نواة لقواته العسكرية. [٣]

كان الشاه إسماعيل شديد البأس على أعدائه ومعارضيه، ففرض مذهبه على أهل السنة في البلدان التي دانت له بالقوة في إيران وتبريز وأذربيجان وخراسان وأجزاء من العراق، وشجع قواته على ممارسة القسوة فقتلوا أعداداً

---

(١) إسماعيل ياغي، مرجع سابق، ص ٢٦

(٢) محمد حرب، مرجع سابق، ص ٢٤٩

(٣) محمد نصر مهنا، مرجع سابق، ص ٢٤٠

لا حصر لها، وبخاصة من علماء السنة وأحرق كتبهم، وقسم بين جنده ما نهبوه من أموال دون أن يأخذ منه شيئاً، ولم تنكس رايته في حرب خاضها قبل چالديران ١٥١٤م، حيث لقي أول هزيمة له على يد السلطان العثماني سليم الأول. [١]

اعتمد الشاه إسماعيل الصفوي سياسة التسلل على حساب الغرب الإسلامي السني، فكان يرسل أتباعه من دعاة المذهب الشيعي يمارسون الدعوة بشكل سري في الأقاليم التابعة للدولة العثمانية والعراق، فلما اكتشفت أجهزة الدولة العثمانية الأمر ألقت القبض على عدد كبير من هؤلاء الجواسيس فقتل عدد منهم وألقي بالبقية في غياهب السجون، ثم أرسل السلطان سليم الأول إلى الشاه إسماعيل يوبخه متهماً إياه بالهرطقة، ويدعوه إلى الإسلام وإلا فالحرب، فرد عليه الشاه بخطاب ليس فيه إلا قطعة من الأفيون، إيحاء بأن الخطاب الوارد من السلطان سليم قد كتب تحت تأثير المخدر، ليعلن قبوله للتحدي، فلم يبق بينهما إلا الحرب. [٢]

تقدم السلطان سليم الأول بالجيوش العثمانية نحو أذربيجان، لكن الشاه إسماعيل لم يتحرك لمقابلته، محاولاً تأجيل المقابلة لتواجه القوات العثمانية برد الشتاء القارص، لكن السلطان سليم حاول الإسراع باللقاء قبل الشتاء فأرسل برسالة إلى الشاه إسماعيل وبها خرقة ومسبحة، في إشارة إلى أصله التصوفي المتواضع، ولما علم السلطان سليم باستعداد خصمه للقتال، توجه إلى صحراء چالديران، بالقرب من تبريز عاصمة الصفويين لتكون ميداناً للقتال، حيث اتخذت القوات العثمانية وضع الاستعداد فاحتلت الرُبا والمواقع الإستراتيجية، فألحقت بقوات القزلباش الصفوية هزيمة ساحقة، فلاذ الشاه إسماعيل الصفوي بالفرار، ودخل السلطان سليم العاصمة الصفوية تبريز،

---

(١) الشوكاني، مصدر سابق، ص ٢٧١

(٢) نبيل رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث** (مكتبة الطالب الجامعي، ١٩٨٨) ص ٤٣٥

لتكون مركزاً لعملياته العسكرية، ومن المفترض أن يتابع السلطان سليم انتصاره في چالديران بالقضاء على الدولة الصفوية وأن يرث ملكها، لكنه انسحب قبل أن يحل الشتاء القارص بسبب تمرد قوات الانكشارية ورفضها البقاء في تلك البقاع شديدة البرودة. [١]

عاد السلطان سليم الأول إلى بلاده بعد چالديران مكتفياً من الغنيمة بالسيطرة على المناطق الشرقية من آسيا الصغرى التي سيطر عليها الشاه إسماعيل من قبل، كما سيطر على ديار بكر، ووضع حداً لانتصارات الشاه إسماعيل، فحاول الأخير أن يبحث عن سند خارجي قوي بالتحالف مع البرتغاليين في سواحل الخليج العربي، وكان البرتغاليون يبحثون عن موطأ قدم لهم في الخليج المذكور بعد أن احتل البوكيرك هرمز لكنه كان يواجه بثورات أهلها، أقر الشاه إسماعيل الوجود البرتغالي في هرمز، وأغراه البوكيرك بمهاجمة جزيرة العرب والدولة العثمانية ووعده بالمساعدة، لكنها كانت مجرد وعود لم ترق إلى واقع،[٢] والهدف منها استمرار الصراع بين الصفويين والعثمانيين ليبقى العثمانيون بعيدين عن أوربا فلا يهددون ممالكها ولا يمدون يد المساعدة لمسلمي الأندلس، وفي الوقت نفسه يفرض البرتغاليون سيطرتهم على الخليج العربي. والنتيجة أن البرتغاليين أعداء الأمة تمكنوا من المياه الإسلامية (في الخليج العربي) فحرموا المنطقة من عوائد التجارة، ولم يجن الصفويون من هذه المحاولة أية ثمار.

تكررت المواجهة مرة ثانية بين العثمانيين والصفويين عقب وفاة طه ماسب، نجحت القوات العثمانية مستغلة ما تمر به الدولة الصفوية من ضعف واضطراب في تحقيق انتصار على القزلباش ودخلت تبريز للمرة الثانية ١٥٨٥م واستولت القوات العثمانية على بلاد القوقاز وأذربيجان

---

(١) محمد نصر مهنا، مرجع سابق، ص ص ٢٤٦– ٢٤٨

(٢) عبد العزيز نوار، **الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند** (درا النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١م) ص ٢٢٦

والكرج وجورجيا وشروان، حتى إذا ما وصل الشاه عباس الكبير إلى حكم الدولة الصفوية عقد صلحا مع الدولة العثمانية وتعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين في مملكته وبعث بأحد أفراد أسرته رهينة في البلاط العثماني ضماناً لتنفيذ التعهدات الصفوية.

وما أن اكتملت للشاه عباس أسباب القوة وأحس بضعف الدولة العثمانية حتى شرع في استرداد الأقاليم التي احتلها العثمانيون من قبل، كما ضم أجزاء كبيرة من العراق، فضم بغداد والنجف وكربلاء، وقام الشاه عباس بزيارة مقدسات الشيعة في النجف وكربلاء، وتحالف الشاه عباس مع القوى الأوربية ضد الدولة العثمانية.

ضم دولة المماليك:

بعد أن فرغ سليم الأول من أمر الدولة الصفوية وأكد سلطانه على المناطق الشرقية توجه نحو أملاك دولة المماليك، وفي رأينا تنحصر الأسباب الحقيقية لتوجه السلطان سليم الأول بقواته ضد المماليك إلى سببين أساسيين هما:

أولاً: ضعف دولة المماليك، فلم تعد قادرة على الدفاع عن أملاكها، وهذا ما أغرى السلطان العثماني بها، وهذا ضعف طبيعي في تاريخ الدول وأعمارها، فدولة المماليك كانت تمر آنذاك بمرحلة الشيخوخة، وزاد من هذا الضعف التنافس والتحاسد بين قادة المماليك، وفساد الجهاز الإداري وانتشار الرشوة.

ثانياً: أن الاستيلاء على أملاك دولة المماليك سيسهل مهمة الدولة العثمانية في مواجهة البرتغاليين والدفاع عن مقدسات المسلمين، وهذا يرفع من مكانة الدولة العثمانية في العالم الإسلامي، ويجعل منها القوة الإسلامية الأولى في العالم.

تذرعت الدولة العثمانية بعدة ذرائع لتحقيق أهدافها وتبرير مواجهتها العسكرية مع المماليك، فادعت الدولة العثمانية أن للمماليك موقف عدائي منها، تمثل في:

أولاً: إيواء السلطان قنصوه الغوري للأمراء العثمانيين الفارين من البيت العثماني في صراعهم على العرش مع سليم الأول، وفي مقدمتهم الأمير أحمد شقيق السلطان سليم.

ثانياً: الخلاف على الحدود، حيث كانت بعض الكيانات السياسية على الحدود تتردد في ولائها بين الدولتين العثمانية والمملوكية، الأمر الذي يثير الكثير من المشكلات الحدودية، فأراد السلطان سليم أن يحسم هذه المشكلات لصالحه.

ثالثاً: وقوف أمراء المماليك وسلطانهم مع الدولة الصفوية معنوياً ضد الدولة العثمانية، وتحتفظ الدولة العثمانية في متحف طوب قابو باستانبول بوثيقة سرية موقعة بين السلطان الغوري والفرس تفيد تحالفهما ضد الدولة العثمانية.[١]

رابعاً: استنجد علماء وبعض أهالي حلب ومصر بالعثمانيين من ظلم المماليك الذي لحق بهم وعدم تطبيقهم الشريعة الإسلامية، وأوضحوا صوراً من هذه المخالفات في عريضة إلى السلطان سليم الأول ووعدوه بالمساعدة إذا قرر إرسال قوات عسكرية تخلصهم من جور المماليك، وأيضاً احتفظت الدولة العثمانية بهذه الوثائق في الأرشيف العثماني بمتحف طوب كابو باستانبول، وتم إرسال رسل سرية للتحقق من صدق هذه الوعود.[٢]

وكلها أسباب واهية، فالمماليك لم يستخدموا الأمراء العثمانيين الذين اتخذوهم ملجأ ضد الدولة العثمانية، كما أن مشكلات الحدود بين البلدين

---

(١) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ٢٠٦- ٢٠٨

(٢) محمد حرب، مرجع سابق، ص ص ١٦٩- ١٧١

ليست بالجديدة، ولم تصل إلى الحد الذي يهدد كيان الدولة العثمانية، ومن المعروف أن سلاطين المماليك قد اتخذوا موقفاً محايداً من الحرب العثمانية – الصفوية، ومن غير المعقول أن تساند دولة المماليك السنية الدولة الصفوية الشيعية ضد الدولة العثمانية السنية، لكن السلطان العثماني قرر ضم دولة المماليك.

التقت القوات العثمانية مع القوات المملوكية بقيادة قنصوه الغوري، في معركة مرج دابق ١٥١٦م وكانت الكلمة للقوات العثمانية الأكثر تنظيماً والأحدث أسلحة، وقتل في ميدان المعركة السلطان الغوري، فأمر السلطان سليم الأول به فأقيمت عليه صلاة الجنازة ودفن على مشارف حلب، ودخلت القوات العثمانية حلب ثم دمشق وتقدمت في مدن الشام دون مقاومة تذكر حتى دانت الشام كلها للعثمانيين، وسكت العملة باسم السلطان سليم الأول ودعي له على منابرها. (١)

أرسل السلطان سليم إلى طومان باي في مصر يدعوه إلى الدخول في طاعته سلماً، وعلى غير العادة أساء المماليك استقبال رسل السلطان العثماني فقتلوهم، وتقدمت قوات المماليك نحو بلاد الشام لملاقاة القوات العثمانية، فلم يتركوا أي فرصة لتفادي الحرب. تقدمت القوات العثمانية نحو مصر فالتقت بقوات المماليك عند غزة فانهزم الجيش المملوكي وتراجع إلى الريدانية، حيث لحق بالمماليك هزيمة ساحقة عام ١٥١٧م وقتل طومان باي تحت أرجل الخيل، ويرجع سبب الهزيمة إلى اعتماد المماليك على الأسلحة القديمة والمدافع الثقيلة التي يصعب تحريكها بينما اعتمد الجيش العثماني على الأسلحة الحديثة والمدافع الخفيفة، فتمكنت القوات العثمانية من الدوران خلف المدفعية المملوكية وتطويق القوات المملوكية. وكان عدد من قادة المماليك قد تنبأ بمصير المعركة فانحاز إلى الجانب العثماني، ومنهم جان

---

(١) محمد حرب، مرجع سابق، ص ٢٩

بردي الغزالي الذي أعطاه السلطان سليم حكم دمشق، وخير بك الذي أسند إليه السلطان سليم حكم مصر. [١]

جعل السلطان سليم الأول من مصر والشام ولايتين تابعتين للدولة العثمانية، وبدأ بالعفو عمن بقي من المماليك الجراكسة وعن أولادهم، وحفظ عليهم أموالهم، ولم يتعرض للأوقاف بل تناولها بالتنظيم وقرر مرتبات لموظفي الأوقاف وحدد غلال الحرمين، ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف المرابطين وحماة القلاع، وأبطل المظالم والمكوس والمغارم، ثم عاد إلى بلاده وفي صحبته الخليفة العباسي، كما اصطحب معه مجموعة منتقاة من أرباب الحرف والصناعات التي لا توجد في بلاده. [٢]

ترك العثمانيون للمماليك أمر تنظيم الأمور الداخلية في يد المماليك الذين استسلموا لهم، ومنهم خاير بك الذي ولاه السلطان سليم حكم مصر وجان بردي الغزالي الذي ولاه حكم الشام، وهذه عادة العثمانيين في إدارة الأقاليم المفتوحة، حيث تسند الإدارة لأهل الخبرة في الإقليم، وهذا النظام له إيجابياته وسلبياته.

ضم الحجاز واليمن:

كانت الحجاز تابعة لسلطان المماليك، ولكن مع وصول أنباء هزيمة المماليك في الشام ومصر أعلن الشريف بركات شريف مكة المكرمة ولاءه للسلطان سليم الأول وأرسل إليه بمفاتيح الكعبة، فأقره السلطان سليم أميراً على حكم الحجاز، جرياً على عادة العثمانيين في التعامل مع من يستسلم لهم، وبذلك حاز السلطان سليم مكانة عظيمة في العالم الإسلامي باعتباره

---

(١) عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص ٩٣

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، جـ١، ص ٣٧

خادم الحرمين الشريفين وحامي حمى المقدسات الإسلامية، ومكن الدولة العثمانية من التصدي للعدوان البرتغالي. [١]

وعلى خطى الشريف بركات أرسل حاكم اليمن المملوكي الجركسي "إسكندر" وفداً إلى السلطان سليم يقدم فروض الولاء والطاعة، فأبقاه السلطان سليم في منصبه يحكم باسم الدولة العثمانية، وبذلك فرضت الدولة العثمانية سيادتها على البحر الأحمر كاملاً، وبدأت تتحكم في مدخله الجنوبي. واليمن ذات موقع استراتيجي مهم. وقد وقعت الدولة العثمانية في خطأ بتأخرها في تأكيد سيادتها بمزيد من القوات العسكرية على اليمن، نظراً لما لهذا البلد من مشكلات سياسية، فالصراع قائم بين الإمامة الزيدية والسلطة المملوكية، والوجود البرتغالي آنذاك قوي في بحر العرب، بما يهدد هذا البلد. وعندما استشعر العثمانيون الخطر البرتغالي أرسل السلطان العثماني حملة بحرية من أربع وسبعين سفينة وعشرين ألف مقاتل عام ١٥٣٨م لإحكام السيطرة على مضيق باب المندب؛ فأحكمت القوات العثمانية سيطرتها على عدن ١٥٣٩م، ثم تعز ١٥٤٥م، فصنعاء ١٥٤٧م، كما احتل الأسطول العثماني الساحل المقابل في سواكن ومصوع على الساحل الغربي للبحر الأحمر عام ١٥٥٧م، ومع ذلك ظلت الإمامة الزيدية مناوئة للوجود العثماني في اليمن إلى أن قضت عليه سنة ١٦٣٥م. [٢]

الصراع العثماني البرتغالي:

مما لاشك فيه أن الدافع الديني كان له أهمية كبرى في حركة الكشوف الجغرافية، بعد الدافع الاقتصادي، فحركة الاسترداد المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا والصراع الإسلامي المسيحي ترك بصمة واضحة على حركة الكشوف الجغرافية، لاسيما البرتغالية منها التي حاولت الاستيلاء على أجزاء

([١]) جميل بيفون وآخرون، تاريخ العرب الحديث (دار الأمل للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م) ص ٤٠

([٢]) جميل بيفون وآخرون، مرجع سابق، ص ص ٤١، ٤٢

من المغرب العربي ثم حاولت فرض سيطرتها على البحر الأحمر والخليج العربي في طريقها إلى الهند.

وتحليل خطاب القائد البرتغالي البوكيرك في جنوده عندما استولى على ملقا يؤكد الاتجاه الديني للنشاط البرتغالي في المنطقة العربية، إذ أكد أن الهدف البرتغالي هو حرمان المسلمين العرب من عوائد التجارة بهدف إضعاف قوة المسلمين، لتصبح مكة والقاهرة أثراً بعد عين. [١] وقال القائد المذكور في يومياته "إن هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوي ونبش قبر النبي محمد وأخذ رفاته"[٢]

وقد ساعد البرتغاليون في تحقيق أهدافهم في الجنوب العربي ضعف المماليك وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية، فتركوا سكان عدن والخليج العربي يواجهون البرتغاليين بأنفسهم، وكانت الكلمة للأسلحة الحديثة البرتغالية المتقدمة، وعندما حاول المماليك إرسال أسطول بحري ليتصدى للبرتغاليين في البحر الأحمر، الحق البرتغاليون الهزيمة بهذا الأسطول عند جزيرة ديو سنة ١٥٠٩م. [٣]

وبعد أن سيطر العثمانيون على العالم العربي أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية، فتم طرد البرتغاليين من كافة موانى البحر الأحمر حتى مقديشيو وممبسة، وأصدر سليمان القانوني أوامره إلى واليه على مصر سليمان باشا الخادم يأمره بإعداد أسطول قوي في ميناء السويس وتسييره إلى الهند لتأمين تجارة المناطق العربية عبر البحر الأحمر والخليج العربي وإزالة آثار العدوان البرتغالي في هذه المناطق. وكادت الحملة أن تحقق كافة

---

(١) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م) جـ٢، ص ٦٩٨

(٢) يوسف الثقفي، مرجع سابق، ص ٣٧

(٣) نوال الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي (دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م) ص ١٠٦

أهدافها لولا وصول إمدادات برتغالية عززت الوجود البرتغالي في الهند، لكن الحملة نجحت في إبعاد الخطر البرتغالي عن المناطق العربية في البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي.[١] وعادت تجارة الهند مع البنادقة عبر الموانى العربية تنتعش مرة أخرى، فتوافدت السفن الهندية محملة بالتوابل على ميناء جدة، واشترى البنادقة في عام ١٥٥٤م من الموانى الإسلامية حوالي ستة آلاف قنطار من التوابل والبضائع الهندية. [٢]

الدولة العثمانية والمغرب العربي:

تحمل الساحل الشمالي الغربي للمغرب العربي الضربات الأولى للهجمات البرتغالية والأسبانية التي جاءت في إطار حركة الاسترداد المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا، وبخاصة مع اعتقاد المسيحيين في البلدين المذكورين بأن بلدان المغرب العربي مدت في عمر الوجود الإسلامي في الأندلس ما يقرب من مائة عام، وتحت وطأة حركة الاضطهاد ضد المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا زحفت هجرات كبيرة من الأندلس إلى شمال أفريقيا، الأمر الذي سبب خللا اجتماعياً وسياسياً في المنطقة، وتبلورت من المهاجرين الذين لهم دراية بالبحر حركة مقاومة ضد النشاط البحري الأسباني والبرتغالي وفرسان القديس يوحنا في شمال أفريقيا، تزعم هذه الحركة الأخوان عروج وخير الدين بربروسا، وترجع أصول والدهما إلى الأتراك جاء مع الفاتحين واستقر في جزر الأرخبيل، وأمهما من مسلمي الأندلس.[٣]

---

(١) يوسف الثقفي، مرجع سابق، ص ٤٠

(٢) جميل بيفون وآخرون، مرجع سابق، ص ٤٥

(٣) صلاح العقاد، المغرب العربي في بداية العصور الحديثة (الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩) ص ٣٧

كان الشمال الأفريقي فيما عدا المغرب الأقصى يعاني فراغاً سياسياً آنذاك، فاستعان الأهالي في الجزائر بالأخوين عروج وخير الدين لحمايتهم من العدوان الصليبي، فاستقر الأخوان في حكم الجزائر ونجحا في التصدي للأسبان وأخرجوهم من بجاية، وفي عرض البحر مارس الأخوان حرب الكر والفر ضد السفن الأسبانية والبرتغالية، لعدم القدرة على ممارسة حرب نظامية، وعلى الرغم من أن حركة الجهاد هذه كبدت الجانب الأوربي خسائر فادحة إلا أنها كانت في خطر لعدم تكافؤ القوى، لذا لجأ الأخوان إلى التحالف مع القوة الإسلامية الكبرى آنذاك ممثلة في الدولة العثمانية، وكانت حركة الجهاد قد فقدت عروج الذي قتل أثناء حصار تلمسان لتخليصها من الأسبان سنة ١٥١٨م، فأرسل خير الدين بهدية إلى السلطان سليم عقب ضمه مصر والشام وعودته إلى إستانبول، مع رسالة موقعة من مشايخ الجزائر وقضاتها ووجهائها نيابة عن سكانها، وحملها إلى إستانبول سفارة على رأسها الفقيه أبو العباس بن أحمد، فرحب السلطان سليم وأقر خير الدين بربروسة على حكم الجزائر ومنحه رتبة بكلر بك وأرسل له دعماً مؤقتاً أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود.[١]

بذلك دخلت الجزائر رسمياً برغبة أهلها تحت الحكم العثماني منذ عام ١٥١٩م، وأرسل السلطان سليم قوة من المدفعية للدفاع عن الجزائر مع ألفين من قوات الإنكشارية، ودعي للسلطان العثماني على منابرها وسكت العملة باسمه. وأصبحت الجزائر قاعدة عثمانية تنطلق منها عمليات الجهاد والوسع، فأمر السلطان سليمان القانوني ببناء أسطول عثماني يرابط في شمال أفريقيا يتولى الدفاع عن تلك المناطق. نجح خير الدين تحت سيادة العثمانيين في تطهير الجيوب الساحلية من الوجود الأسباني وتوحيد المغرب

---

(١) راجع: زكريا سليمان بيومي، **قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين** (عالم المعرفة، ١٩٩١م) ص ص ٨٣- ٨٦

وعبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، جـ٢، ص ص ٩٠٢- ٩١٠

الأوسط (الجزائر) وتطهيره من عملاء الأسبان. وبدا خير الدين والدولة العثمانية يتطلعان إلى تونس لما لها من أهمية إستراتيجية في مواجهة إيطاليا، وكانت الدولة الحفصية في حالة من الضعف والانهيار، ولسلطانها علاقات مريبة مع الأسبان. استدعى السلطان العثماني القانوني خير الدين إلى إستانبول، فسافر إليه حيث لقي حفاوة بالغة باعتباره أحد المجاهدين العظام، فخلع عليه لقب قبودان باشا أي وزير البحار وزوده بأسطول عظيم. عاد خير الدين فهاجم في طريقه جنوب إيطاليا ثم هاجم سواحل تونس ومدنها فاستولى عليها بسهولة بينما فر السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى أسبانيا. أعلن خير الدين ضم تونس ١٥٣٤م إلى أملاك الدولة العثمانية وعين عليها الرشيد الحفصي شقيق الحسن بن محمد، ممثلاً للسلطان العثماني. (١)

لم يدم ملك تونس في يد العثمانيين سوى عام واحد فقام الإمبراطور شارل الخامس بحملة كبيرة من خمسمائة سفينة حربية ونجح في هزيمة القوة العثمانية بتونس وسلمها لحليفه الحسن بن محمد، فعادت تونس للحكم الحفصي مرة أخرى ستة ١٥٣٥م، وفشلت جهود المسلمين في استعادتها، على الرغم من النجاح الذي حققه خير الدين باربا روسا ضد السفن التجارية الأسبانية، وحاول الأسبان الاستيلاء على الجزائر دون جدوى، وبقيت تونس في يد الحفصيين تحت الحماية الأسبانية حتى تمكن قلج على بكلربك الجزائر من استعادتها سنة ١٥٧٠م في عهد السلطان سليم الثاني. (٢)

وإذا كان العثمانيون قد نجحوا في ملئ الفراغ السياسي في الجزائر وتونس وآل إليهم حكم ولاية طرابلس وتمكنوا من إثراء حركة الجهاد الإسلامي في البحر المتوسط فإن المغرب الأقصى كانت تشغله قوة كبرى

---

(١) علي الصلابي، مرجع سابق، ص ص ٢٣٢- ٢٣٩

(٢) عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ترجمة: محمود عامر (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩) ص ص ٣٨- ٥٨

ممثلة في الدولة السعدية الشريفية التي نجحت في صد العدوان الصليبي عن أقرب الشواطئ الإسلامية إلى شبه جزيرة أيبيريا، ولعل هذا الوجود السعدي يفسر فشل الأسبان والبرتغاليين في احتلال أقرب السواحل الإسلامية لهم في إطار هجمتهم الشرسة على العالم الإسلامي عقب نجاحهم في استرداد شبه جزيرة أيبيريا من يد المسلمين، بلغ العدوان الأوربي ضد المغرب الأقصى ذروته – مستغلاً الخلاف على العرش السعدي– في معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة (ملك أسبانيا وملك البرتغال وإمبراطور ألمانيا) سنة ١٥٧٨م، لكن المعتصم بالله السعدي نجح في هزيمتهم وقتل الملوك الثلاثة.[١]

ضم العراق وشرق شبه الجزيرة العربية:

استولى السلطان سليم الأول على شمالي العراق بعد انتصاره على الشاه إسماعيل الصفوي في چالديران عام ١٥١٤م، وبقيت بغداد في يد الشاه إسماعيل حتى وفاته في عام ١٥٢٤م، بينما كانت البصرة تحت سيادة أحد رؤساء القبائل العربية. استغل ذو الفقار خان الكردي فرصة وفاة الشاه إسماعيل وزحف على بغداد فدانت له وقتل حاكمها الصفوي سنة ١٥٢٤م، وأعلن ذو الفقار ولاءه للسلطان سليمان القانوني وطلب منه الحماية، جهز طه ماسب حملة لاسترداد بغداد سنة ١٥٣٠م لكنه فشل، فلجأ إلى التآمر ونجح في اغتيال ذو الفقار فدانت له بغداد. استشعر السلطان العثماني الخطر الشيعي فقرر توجيه ضربة وقائية تشبه چالديران. أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى الصدر الأعظم بقيادة الحملة في إبريل عام ١٥٣٤م من حلب، استهدفت الحملة تأمين المناطق الشرقية من الدولة العثمانية، ثم توجهت إلى أذربيجان ودخلت تبريز ومكثت إلى أن لحق بها السلطان في سبتمبر، ثم توجهت الحملة نحو بغداد، فاستولت على سهول

---

(١) إبراهيم شحاته حسن، مرجع سابق، ص ص ١٨٣– ١٩٦

العراق ومنعت وصول الإمدادات الصفوية إليها، ففر حاكمها الصفوي نحو بلاد فارس، وقضى السلطان سليمان الشتاء في بغداد، ثم عاد إلى استانبول ماراً بتبريز بعد أن عين سليمان باشا المجري والياً على بغداد. [١]

وبذلك فرض العثمانيون سيطرتهم على وسط وشمال العراق، أما البصرة فكان حكامها من مشايخ العرب يخضعون لحاكم بغداد بصرف النظر عن انتماءاته، فكان راشد بن مغامس حاكم البصرة خاضعاً للشاه الصفوي، ثم أعلن ولاءه للسلطان العثماني بمجرد استيلائه على بغداد، فأقره السلطان العثماني حاكماً لجنوب العراق، وأصبحت العراق كلها خاضعة للعثمانيين، لكن سرعان ما قام تمرد قبلي في جنوب العراق انضم إليه راشد، فأمر السلطان العثماني إياس باشا واليه على بغداد أن يقود حملة تأديبية ضد قبائل الجنوب عام ١٥٤٦م، أطاحت الحملة بالتمرد وأكدت السيادة العثمانية على جنوب العراق، فيما فر راشد بن مغامس إلى الأحساء، وهي إقليم شبه مستقل يخضع لحاكم يتمتع باستقلال ذاتي، لكنه يدفع ضريبة سنوية للدولة العثمانية. حاولت الدولة الصفوية استعادة سيطرتها على العراق مرة أخرى سنة ١٦٠٢م، لكن الدولة العثمانية تمكنت في عهد مراد الرابع من إعادة العراق إلى حظيرة الدولة العثمانية عام ١٦٣٨م، وظلت العراق تحت السيادة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى. [٢]

وبذلك وصلت الدولة العثمانية إلى أقصى اتساعها، فغدت أملاكها منتشرة في قارات العالم القديم آسيا وأوربا وأفريقيا، وأصبحت تشرف على البحرين المتوسط والأحمر والخليج العربي علاوة على تحكمها في مدخل البحر الأسود، لتكون في تماس مع الغزاة الأوربيين وتتصدى لأطماعهم في ديار المسلمين ما يقرب من ثلاثة قرون من عمر التاريخ الحديث.

([١]) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٩٢، ٩٣

([٢]) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٩٣، ٩٤

مولدافيا
البوسنة
الأناضول
البحر الأسود
جورجيا
إيران
الجزائر
برقة
ليبية
الصحراء الكبرى
مصر
القاهرة
بادية الشام
نجد
السودان
الربع الخالي
الحبشة
اليمن
الإمبراطورية العثـ
في أوج إتساع

الفصل الخامس

عصر الاضمحلال

تمتد فترة عصر الاضمحلال على مدار ثلاثة قرون من الزمان وشهدت تولي عدد كبير من خلفاء بني عثمان يصعب على الطلب حصره، لذا حاولنا أن نتكلم عن السمات الرئيسية لهذا العصر، وأجملناها في نقطتين الأولى: الدولة العثمانية وميزان القوى خلال عصر الاضمحلال والثانية: مشكلات الدولة في عصر الاضمحلال وتتضمن انحطاط السلاطين وعلو نفوذ الوزراء والصدور العظام، تعدد الاضطرابات وثورات الإنكشارية، حركات الانفصال وتقلص النفوذ العثماني.

بدأ عصر الاضمحلال بموت سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م وينتهي بظهور المسألة الشرقية في نهاية القرن الثامن عشر، فبموت سليمان القانوني انتهى عصر السلاطين العظام في الدولة العثمانية، وتتابع على العرش سلاطين ضعاف، وتعرضت الإمبراطورية لهزائم برية وبحرية كبيرة فيما بين عامي ١٥٦٦ و١٧١٨م، فحكم الإمبراطورية خلال هذه الفترة ثلاث وعشرون سلطاناً، لم يظهر كفاءة منهم سوى اثنين هما مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) ومصطفى الثاني (١٦٩٥- ١٧٠٣م) أما الباقون فانغمسوا في ملذاتهم، لذا وقع معظمهم تحت تأثير نساء القصر،[١] فكان السلطان سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤م) أول سلاطين آل عثمان الذين قعدوا عن قيادة الجيوش وتخلوا عن الجهاد، فتوقفت التوسعات العثمانية، وكان لهذه القاعدة استثناءات تمثلت في سلاطين أقوياء حاولوا إحياء سنن أسلافهم الأوائل في الجهاد لاسترداد مكانة الدولة العثمانية، سنتناولهم بالتفصيل بعد حين.

أولاً: الدولة العثمانية وميزان القوى خلال عصر الاضمحلال

شهدت فترة حكم سليم الثاني أول تفوق أوربي على حساب الدولة العثمانية، فبعد أن تمكن العثمانيون من فتح قبرص ١٥٧٠م رحب بهم المسيحيون الأرثوذكس ليخلصوهم من سيطرة الكاثوليك، ونقل العثمانيون

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١٠٩

إلي الجزيرة عدد كبير من الأناضول. تكونت حملة صليبية كبرى لاسترداد قبرص، تمكنت الحملة من إلحاق هزيمة ساحقة بالأسطول العثماني في شرقي البحر المتوسط، في معركة لبانتو ١٥٧١م، وأغرقت ما يقرب من تسعين قطعة بحرية عثمانية وأسرت ١٣٠ قطعة أخرى، وفقد العثمانيون حوالي ثلاثين ألف مقاتل. وعمت أوربا الفرحة لهزيمة العثمانيين لأول مرة منذ القرن الخامس عشر. صحيح تمكن العثمانيون من تفكيك الحلف الأوربي بعقد صلح مع البنادقة، وهاجموا سواحل إيطاليا واقتنصوا تونس من الحفصيين المؤيدين من قبل أسبانيا، لكن معركة ليبانتو وضعت حداً للتفوق العثماني، وأوصلت الكفتان إلى مرحلة قريبة من التساوي. (١)

وأظهرت معاهدات الدولة العثمانية مع الدول الأوربية في هذه المرحلة ضعف هذه الإمبراطورية وتراجع قوتها، فجاءت معاهدة سيتفاتوروك Sitvatorok مع النمسا سنة ١٦٠٦م بعد مفاوضات بين السلطان العثماني وإمبراطور النمسا، ليتعاملا معاملة الأنداد، فقد وضعت المعاهدة حداً لسلسلة من المعاهدات كانت تفرضها الدولة العثمانية على حكام أوربا باعتبارها الدولة الأقوى في الصراع الدائر في المنطقة، وتنازل السلطان العثماني عن الجزية التي كان يدفعها حكام النمسا مقابل مبلغاً من العملة الذهبية يدفعها الإمبراطور للسلطان العثماني مرة واحدة فقط عند توقيع المعاهدة. ويعتبر المؤرخون هذه المعاهدة بداية لتراجع النفوذ العثماني في شرق أوربا. (٢)

وفي نهاية القرن السابع عشر حقق الأوربيون انتصاراً على الدولة العثمانية بقيادة إمبراطور النمسا على أراضي المجر وساحل البحر الأسود، ووقع السلطان العثماني معاهدة كارلوفيتز Carlowitz في يناير ١٦٩٩م تنازل بمقتضاها السلطان العثماني عن ترانسلفنيا ومعظم أراضي المجر

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٤٧

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١١٩

وأجزاء من أكرانيا وبودوليو لبولندا، وهي أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية باعتبارها دولة مهزومة، وانقلب الحال فأصبحت أوربا هي التي تهدد وحدة الدولة العثمانية، وتنازلت الدولة العثمانية بمقتضى معاهدة باساروفتز Passarovitz عام ١٧١٨م عن مزيد من أراضي المجر وبلغاريا. [١]

كانت الخسارة الأعظم في الجانب العثماني في مطلع القرن الثامن عشر في الصراع العثماني الروسي، فكانت رغبة القيصر بطرس الأكبر في الوصول إلى المياه الدافئة هي الدافع الأول لتنظيم حملة روسية ضد الدولة العثمانية في سنة ١٦٩٥ تمكنت من الاستيلاء على آزوف Azov، لكن العثمانيون تمكنوا من استردادها عام ١٧١١م، واصلت كاترين الثانية (١٧٦٢- ١٧٩٦م) الملقبة بالعظمى السياسة الروسية النشطة ضد الدولة العثمانية، مع إدخال عنصر جديد في الصراع هو استمالة البلقانيين عرقياً وإثنياً، على اعتبار أنهم يتوحدون مع الروس في الأصل السلافي والمذهب الأرثوذكسي، فاعتبر الروس أنفسهم ورثة الإمبراطورية البيزنطية. وسعت كاترين إلى توسيع ملك بلادها والوصول إلى المياه الدافئة على حساب الدولة العثمانية، وأطلقت على البوابة الغربية لموسكو اسم "الطريق إلى بيزنطة".

أحكمت كاترين خطة المواجهة مع الدولة العثمانية، بأسطولين عبر البحرين الأسود والمتوسط، وإن كانت جبهة البحر الأسود قد اعتمدت على الجيوش البرية بشكل أكبر، وتضمنت خطة الهجوم إثارة الاضطرابات ضد الدولة العثمانية في البلقان ومصر وبلاد الشام، بالاتصال بالمتمردين في المناطق الثلاث. تمكنت الجيوش الروسية من إلحاق عدة هزائم برية وبحرية بالدولة العثمانية، في القرم وبلغاريا والبحرين الأسود والمتوسط، في حرب استمرت في الفترة من ١٧٦٩ إلى ١٧٧٤م، استولت خلالها على القرم

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١٢٠

وفصلتها نهائياً عن الدولة العثمانية، كما استولت على ولايتي الدانوب ولاشيا وملدافيا[١] لكنها تراجعت عنهما حرصاً على عدم إغضاب النمسا وبروسيا، أما جبهة المتوسط فعلى الرغم من تحقيقها انتصاراً مدوياً على الأسطول العثماني واستولت مقتاً على بعض الجزر التابعة للدولة العثمانية، لكنها تخلت عنها ولم تحقق مكاسب أرضية تذكر، واكتفت بإثارة المتمردين اليونانيين ضد المسلمين، فذبحوا عدداً كبيراً من المسلمين لاسيما سنة ١٧٧١م، قبل أن تتمكن الحاميات العثمانية من السيطرة على الموقف. وانتهت الحرب الروسية العثمانية بتوقيع معاهدة كوچوك قينارجه في ٢١ يوليو ١٧٧٤م، وبمقتضاها أُبعدت الدولة العثمانية عن شبه جزيرة القرم، تمهيداً لضمها إلى روسيا بعد سبع سنوات، واحتفظ السلطان العثماني بحقه في الإشراف على تتار القرم، باعتباره خليفة المسلمين، فللسلطان أن يعين خان التتار ويسمي قضاة الشريعة والإفتاء، وأصبح لروسيا حق تعيين قناصل لها في ممتلكات الدولة العثمانية، ولرعاياها حق ممارسة التجارة هناك. وسمح لروسيا بإقامة كنيسة أرثوذكسية في استانبول، وسُمح لرعاياها بالحج إلى بيت المقدس، الأمر الذي شجع الروس على ادعاء حماية مصالح المسيحيين الشرقيين (الأرثوذكس) في ممتلكات الدولة العثمانية. [٢]

وفي عام ١٧٨٤ ضمت روسيا شبه جزيرة القرم، ومارست سياسات متشددة في مواجهة مسلمي القرم، فتدفقت هجرات المسلمين من القرم إلى الدولة العثمانية. حولت كاترين القرم إلى قاعدة عسكرية للتوسع على حساب الدولة العثمانية، وأخذت تغذي حركات التمرد في اليونان والبلقان ضد الدولة العثمانية، التي فكرت في استعادت القرم من روسيا، فاشتعلت الحرب من جديد سنة ١٧٨٧م وانضمت النمسا إلى روسيا فحققا انتصارات كبرى ضد

---

(١) المعروفتان بالأفلاق والبغدان عند العثمانيين

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١٥٥- ١٦٦

الدولة العثمانية وهددوا الأستانة ذاتها، لولا اشتعال الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م فانشغلت أوربا كلها بأحداثها وانسحبت روسيا من الأراضي التي استولت عليها خلال الحرب الأخيرة. وعقدت روسيا صلح ياسي مع الدولة العثمانية سنة ١٧٩٢م ليؤكد بنود معاهدة كوچوك قينارجه. ويؤكد سيادة روسيا على جورجيا وشمالي البحر الأسود، وما لبثت روسيا أن أقامت ميناء أوديسا وعدداً كبيراً من القلاع، لتتقاسم السيطرة على البحر المذكور مع الدولة العثمانية، فلم يعد البحر الأسود بحيرة عثمانية. (١)

ثانياً: مشكلات الدولة في عصر الاضمحلال:

من السنن الكونية في أعمار الدول أنها تعاني العديد من المشكلات في فترات الاضمحلال، وتتوقف أعمار الدول بداية من عصر الاضمحلال على حجم ما تعانيه الدولة من مشكلات وقدرتها على علاج هذه المشكلات، وقد عانت الدولة العثمانية العديد من المشكلات خلال هذه المرحلة منها:

انحطاط السلاطين وعلو نفوذ الوزراء والصدور العظام

تسرب الضعف إلى الدولة العثمانية عقب وفاة السلطان سليمان القانوني الذي تولى بعده سلاطين ضعاف انصرفوا إلى ملذاتهم، حتى أن خليفته المباشر سليم الثاني لقب بالسكِّير، فانصرف لملذاته وكان أول سلاطين آل عثمان انصرافاً عن الجهاد، فلم يعد يقود الجيوش بنفسه، فتسلط النساء على العرش، وزاد نفوذ الصدر الأعظم، ولولا النظام الذي تركه سليمان القانوني والكوادر السياسية التي دربها لانهارت الدولة، فقد صان النظام والرجال الأقوياء الذين تركهم القانوني الدولة من الانهيار؛ ومن هؤلاء الرجال الوزير محمد صوقوللي من إقليم البوسنة الذي نجح في وقف الفوضى، وأرسل حملة عام ١٥٦٩ لاسترداد استراخان التي استولت عليها

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١٦٧- ١٦٩

موسكو وقطعت طريق الحجاج والتجارة فيما بين الفولجا والبحر الأسود، نجحت الحملة في إبعاد الروس والصفويين عن المنطقة وتأمين طريق الحجاج والتجارة بين آسيا وأوربا عبر القوقاز وأذربيجان، كما تمكن صوقوللي من استرداد اليمن (١٥٦٨- ١٥٧٠) ونجح في فتح قبرص عام ١٥٧٠م، ليعزز سيطرة البحرية العثمانية على شرقي المتوسط، وأعاد السيطرة العثمانية على البحر الأحمر.[١]

وظهرت بوادر الضعف على سلاطين آل عثمان أنفسهم في عهد مراد الثالث، حيث تقرر وضع أعضاء الأسرة فيما عدا أبناء السلطان في مقاصير خاصة، يمنعون من مخالطة الناس إلا بعض الغلمان والخدم، وعقب وفاة السلطان أحمد الأول سنة ١٦١٧م صدر قانون وراثة العرش ليجعل السلطنة في أكبر أبناء آل عثمان سناً، فوصل إلى العرش سلاطين حبسوا فترة طويلة في تلك المقاصير، حتى أن كثيراً منهم افتقد إلى خبرة الحياة، فتركوا مقاليد الدولة العليا في يد الصدور العظام، فانفردوا بالتعيينات في وظائف الدولة الكبرى، وقيادة الجيوش. ومنذ سنة ١٦٥٤ غدا قصر الصدر الأعظم رمز الإدارة ومركزها الرئيسي، فضم ديوان الحكم بهيكله الإداري، وأطلق عليه لقب بوابة الباشا أو الباب العالي. وتولى الصدارة العظمى بعض الرجال الأكفاء، لكن الغالبية العظمى لم يصلوا إلى مناصبهم عن جدارة واستحقاق. [٢]

ومن أعظم من تولى منصب الصدر العظمى محمد كوبريللي وهو رجل قوي شديد الذكاء محنك في الإدارة، على الرغم من أميته وكبر سنه فقد كان في السبعين من عمره عندما تولى مقاليد هذا المنصب، فقد وقع عليه اختيار والدة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨- ١٦٨٧م) ليتصدى للأخطار

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١٤٣- ١٤٦

(٢) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ١١١، ١١٢

المحدقة بالسلطنة، واستجابت للشروط التي أملاها لقبول هذا المنصب، فحكم البلاد بيد من حديد وواجه تجاوزات الإنكشارية بكل حزم وشدة، فيروى أن عدد من شنق في عهده (خمس سنوات) بلغ ستة وثلاثين ألفاً، فأجبر الجميع على احترام القانون، ولما شعر بدنو أجله ألقى بنصائحه في أذن محمد الرابع ومنها ألا يستمع للنساء، ولا يعهد بمنصب حساس لغني، وأن يشغل الجيش دائماً بالحروب، وخلفه في المنصب ابنه أحمد، ثم تراجعت الصدارة العظمى إلى أن وصل إليها فاضل مصطفى من أسرة كوبريللي عام ١٦٨٩ فأعاد للدولة هيبتها على جثث آلاف من الإنكشارية، لكن حتى الصدور العظام الأقوياء لم يتمكنوا من ملئ الفراغ الذي تركه سلاطين عصر القوة والازدهار. (١)

تعدد الاضطرابات وثورات الإنكشارية

يمثل الإنكشارية قوة كبرى ذات مصالح موحدة الأمر الذي شكل خطراً على الدولة عندما يواجهون بما يتعارض مع مصالحهم كشريحة اقتصادية إقطاعية، فقد شهدت الدولة في عصور القوة والازدهار حركات تمرد للانكشارية، فعلى سبيل المثال بعد معركة چالديران رفض الإنكشارية البقاء في تبريز العاصمة الصفوية، متعجلين العودة ومحتجين ببرودة الجو القارصة، في حين كانت المصلحة تقتضي البقاء وتتبع فلول الصفويين للقضاء عليهم قضاء مبرماً. وكثيراً ما عارض الإنكشارية رغبات السلاطين إذا رأوا أنها تتعارض مع مصالحهم. وقد كان هذا نذيراً بخطر يتهدد كيان الدولة من هذا النظام العسكري في فترات الضعف. ومع توقف العمليات العسكرية زادت حركات التمرد والعصيان التي قام بها الإنكشارية في الولايات العثمانية، لأنهم رأوا أن باباً من أبواب الرزق قد أغلق في وجههم.

---

(١) أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ص ١٥٣، ١٥٤

شهد مطلع القرن السابع عشر مع بداية حكم السلطان مراد الرابع تمرداً إنكشارياً كبيراً زلزل أركان الإمبراطورية العثمانية، بدأ هذا التمرد بمعارضة الإنكشارية إصلاحات السلطان عثمان الثاني فقاموا بقتله سنة ١٦٢٢م. وسادت الفوضى أرجاء الأناضول والروميللي، وأخذ الإنكشارية يرهبون الناس في المدن ويستغلونهم، وانضم إلى المتمردين مجموعات من العاطلين، الأمر الذي أضفى على التمرد نوعاً من الفوضى، انتهز الشاه عباس الصفوي هذه الاضطرابات واستولى على بغداد ثم على مدن العراق الواحدة بعد الأخرى وقتل كثيراً من أهل السنة، فلم يبق في يد العثمانيين سوى البصرة والموصل.

وكان الشاه عباس يحاول إضعاف الدولة العثمانية، فتحادث مع الروس والبولنديين في فتح طريق للتجارة عبر نهر الفولجا والقوقاز لا يمر بأملاك الدولة العثمانية، وتفاوض مع الإنجليز لتشجيع التجارة عبر الخليج العربي وبحر العرب. وواجهت الدولة العثمانية مزيد من حركات الانفصال في العالم العربي، من جانب المماليك في مصر والزيديين في اليمن والمعنيين في جبل لبنان. لكن السياسة الصارمة التي اتبعها مراد الرابع (١٦٢٤-١٦٤٠م) مكنته من القضاء على التمرد وإعادة هيبة الدولة مرة أخرى؛ فأبعد المتكاسلين عن الخدمة، وتخلص من الفاسدين بالقتل، ونظم الإدارة وطبق العدل، واستعاد العراق من أيدي الصفويين وأنهى حالة الحرب معهم واستقرت الحدود بين العراق وإيران على نحو قريب مما هي عليه الآن وفق معاهدة قصر شيرين عام ١٦٣٩م. لكن سرعان ما عادت الدولة إلى الاضمحلال مرة أخرى بوفاة مراد الرابع.[١]

حركات الانفصال وتقلص النفوذ العثماني

---

(١) أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ص ١٥٠، ١٥٣

غدت الدولة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر مجموعة متناثرة من السلطات المحلية بعضها قوي وبعضها ضعيف، تخضع للسلطان العثماني اسماً فقط. فبرز في أقاليم الروميللي وآسيا الصغرى أعيان يسمون الدرة بكوات زاد نفوذهم إلى درجة أنهم كانوا يختارون أحدهم ليكون والياً عليهم ثم يأتيهم به فرمان من السلطان العثماني حفاظاً على شكل السلطة التقليدي، وقد ساهم الإنكشارية في الأقاليم في تدعيم نفوذ الدرة بكوات لمصالح متبادلة بين الطرفين، لكنها ليست في مصلحة الأهالي ولا في مصلحة السلطة المركزية بالطبع، الأمر الذي أدى إلى زيادة الفوضى في الأناضول والبلقان. وفي العالم العربي أدى ضعف الدولة العثمانية إلى محاولة تركيز السلطة في يد الفئات المحلية الحاكمة بشكل أو بآخر، ففي مصر سيطر بكوات المماليك وأهمهم علي بك الكبير قبيل الحملة الفرنسية وشيخ العرب همام في صعيد مصر، ثم محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي جبل لبنان المعنيون والشهابيون، وفي الجليل وعكا الشيخ ظاهر العمر، وآل العظم في سوريا، والزيديون في اليمن، كما سيطر آل سعود على معظم شبه الجزيرة العربية بما فيها الحجاز.

وقد لعبت أياد خارجية في تزكية نار الفتنة وتشجيع الحركات الانفصالية في داخل الدولة العثمانية في محاولة لإضعافها، فعلى سبيل المثال اتصلت روسيا بكل من على بك الكبير في مصر والشيخ ظاهر العمر والي عكا لتشجيعهما على الانفصال عن الدولة العثمانية وأمدوهما بالأسلحة، فقام على بك الكبير بشن حرب على القوات العثمانية وحاول ضم بلاد الشام، وتدخلت القوات الروسية لرفع الحصار العثماني عن علي بك الكبير، ولكن انتهت حياته في أسر العثمانيين، كما قتل ظاهر العمر على يد محمد بك أبو الذهب.

كما ساند البابا فخر الدين المعني الثاني والي عكا، زعيم الدروز في جبل لبنان، وهو حفيد فخر الدين المعني الأول الذي بايع السلطان العثماني

سليم الأول عندما ضم بلاد الشام ١٥١٦، داهن فخر الدين المعني الثاني السلطان العثماني أحمد الأول (١٦٠٣- ١٦١٧) حتى تمكن من جبل لبنان وكون جيشاً من أربعين ألف مقاتل ثم أعلن التمرد والعصيان على الدولة العثمانية وأمده الإيطاليون بالسلاح والمال، فلما هزمته القوات العثمانية فر بمساعدة فرسان القديس يوحنا إلى إيطاليا ومكث بها إلى أن صدر بحقه عفوا عاماً من السلطان العثماني الجديد مصطفى الأول فعاد إلى عكا ١٦١٨م، لكنه ما لبث أن تبنى حملة لتغريب البلاد ثم أعلن التمرد من جديد، فهزم ووقع في أسر القوات العثمانية التي اقتادته إلى استانبول وأعدم شنقاً.

ومما لا شك فيه أن الإدارة العثمانية ساهمت في هذه الحالة المتردية التي وصلت إليها البلاد في هذه المرحلة لعدة أسباب أهمها:

أن الدولة العثمانية أقرت في السلطة المحلية الكوادر الإدارية التي كانت لها السلطة والسيادة في البلاد قبل دخولهم، لما لهم من خبرة ودراية بأحوال البلاد، لكنهم لم ينظروا إلى الجانب السلبي لهذه الخبرة، ألا وهي معرفتهم بسبل التسلط على هذه الشعوب.

كان كل هم الإدارة المركزية إرسال هؤلاء الحكام الأموال المطلوبة منهم للخزانة كدليل على الولاء، ولم يهتموا بما يجمعه أولئك من أضعاف مضاعفة من الشعوب، وما يترتب على ذلك من غبن يقع على الشعوب باسم الحكومة العثمانية.

سمحت الإدارة العثمانية المركزية للقبائل المحلية في مناطق الثغور بحراسة هذه الثغور مقابل السماح لهم بجباية الرسوم اللازمة من القوافل التجارية التي تمر بالمنطقة، فأدى ذلك على تضخم نفوذ بعض القبائل حتى خرجت عن سلطة الحكومة المركزية ولم تعد تأتمر بأمرها.

حددت الإدارة المركزية سلطة الوالي بمدة محددة بسنة واحدة أو ثلاث سنوات، فكان الوالي يحاول جمع أكبر قدر من الثروة خلال مدته، لاسيما في ظل إطلاق يده بدون رقابة من السلطة المركزية.

كثيراً ما خرجت الأوجاقات العسكرية في الأقاليم عن السيطرة وسئمت النظام واعتادت على الفوضى والتدخل في شؤون الحكم، الأمر الذي كانت له آثاره السلبية على النظام والأمن.

الفصل السادس

حركة الإصلاح والتنظيمات العثمانية

بنهاية القرن الثامن عشر أثبتت المواجهات العسكرية بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ولاسيما مع روسيا إنهاء حالة التفوق العسكري العثماني، وأن ميزان القوى قد انتقل إلى أوربا، الأمر الذي تطلب من سلاطين الدولة العثمانية وقفة مع النفس لإجراء إصلاحات في كافة المجالات ولو تطلب الأمر الأخذ عن أوربا المتقدمة. وفي هذه الفترة وصلت السلطة المركزية للدولة العثمانية إلى حالة متردية، وغدت السلطة الحقيقية في يد عدد من الجماعات مثل العلماء والإنكشارية والأعيان إضافة إلى حكام الأقاليم، كرست كل مجموعة جهودها للحفاظ على امتيازاتها، ومحاربة الجهود الإصلاحية من جانب الحكومة المركزية. وعانى الإصلاحيون الأوائل معاناة كبيرة، ودفع بعضهم حياته ثمنا لجهوده الإصلاحية. ويعد محمود الثاني أعظم سلاطين حقبة الإصلاح. وعررضنا للإصلاحات في فترة التنظيمات العثمانية.

بنهاية القرن الثامن عشر أثبتت المواجهات العسكرية بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ولاسيما مع روسيا إنهاء حالة التفوق العسكري العثماني، وأن ميزان القوى قد انتقل إلى أوربا، الأمر الذي تطلب من سلاطين الدولة العثمانية وقفة مع النفس لإجراء إصلاحات في كافة المجالات ولو تطلب الأمر الأخذ عن أوربا المتقدمة. وفي هذه الفترة وصلت السلطة المركزية للدولة العثمانية إلى حالة متردية، وغدت السلطة الحقيقية في يد عدد من الجماعات مثل العلماء والإنكشارية والأعيان[1] إضافة إلى

(١) هم مجموعة من البشوات السابقين وملاك الأراضي ومستأجري الإقطاعيات الزراعية والملتزمين، كونوا أرستقراطية زراعية في الأناضول والروملي (البلقان) عرفت باسم الأعيان أو الدرة بكوات أو أمراء الوديان، واعترفت بهم الإدارة المركزية فأصدرت فرمانات تعضد إشرافهم على الإدارات المالية والمدنية في المدن، واعتمدت الدولة على ما يقدمه هؤلاء لها من قوات في حروب أواخر القرن الثامن عشر، فوصلت قوتهم إلى تحدي السلطة المركزية في كثير من الأحيان، لمزيد من التفاصيل راجع: عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١٢٣

حكام الأقاليم، كرست كل مجموعة جهودها للحفاظ على امتيازاتها، ومحاربة الجهود الإصلاحية من جانب الحكومة المركزية.

بوادر حركة الإصلاح:

ظهرت بوادر الإصلاح على النمط الأوربي على يد ألداماد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠م) فرأى ضرورة فتح حوار مع سفراء الدول الأوربية والاستفادة من خبراتهم في الدبلوماسية والمجال العسكري، وأمر بتنشيط حركة الترجمة، وأرسل مبعوثين إلى الدول الأوربية لرصد حركة التقدم وكتابة تقارير عما يمكن نقله إلى الدولة العثمانية، ففتح ثغرة في الستار الحديد العثماني، للاعتراف بالأمر الواقع، وإنهاء الاعتقاد السائد بالتفوق العثماني. تجاوب السلطان أحمد وعلية القوم مع الانفتاح على أوربا، فاخذوا عنها البذخ في عمارة القصور وأثاثها وحدائقها والأدب فقط. ودخلت المطبعة الدولة العثمانية آنذاك لأول مرة.

استعان السلطان محمود الأول (١٧٣٠- ١٧٥٤م) بخبير فرنسي في الشؤون العسكرية، هو أحد الأمراء ويدعى كلود ألكسندر كونت دي بونفال الذي اعتنق الإسلام باسم أحمد، وتولى تدريب وتطوير فرقة الخمبرجية أي المدفعجية، لذا عرف باسم خمبرجي باشا، واستقدم ثلاثة فرنسيين لمعاونته اعتنقوا الإسلام أيضاً، واقترح تطوير الجيش على أسس فرنسية، وتقسيم الإنكشارية إلى فرق صغيرة يقودها ضباط شبان يسهل تدريبهم، لكن معارضة الإنكشارية أفسدت الخطة، فقصر جهوده على تطوير المدفعية. وأنشأ أحمد باشا مصنعاً لصب المدافع وثان للذخيرة وثالث للبنادق، وافتتح مدرسة للهندسة العسكرية، غير أن الإنكشارية تصدوا لمشروعاته، ونجحوا في إلغاء فرقة المدفعية بعد وفاته. وسرعان ما اندثرت كل الإصلاحات خلال فترة السلام التي حظيت بها الدولة العثمانية في الفترة من ١٧٤٧ إلى ١٧٦٨م عند انشغال أوربا بحروب الوراثة النمساوية وحرب السنوات السبع.

عادت الإصلاحات على استحياء عام ١٧٦٥ عندما عين السلطان مصطفى الثالث مستشاراً فرنسياً لفرقتي المدفعية والمهندسين هو البارون دي توت المجري الأصل، وعهد إليه بإنشاء فرقة مدفعية على أن تلحق بها مدرسة هندسة، فأنشأ فرقة مدفعية سريعة الطلقات عام ١٧٧٤ من مائتي وخمسين مقاتلاً. وأنشأ مصنعاً للمدافع ومدرسة، ظل دي توت يعمل في خدمة الدولة العثمانية حتى عام ١٧٧٦م حين عاد إلى فرنسا للعمل في خدمة الملكية، وكانت تجربته تكراراً لتجربة الكونت دي بونفال. والجدير بالذكر أن البارون دي توت لم يعتنق الإسلام، الأمر الذي يبطل ادعاء بعض المؤرخين بأن الدولة العثمانية كانت ترغم من يعمل في خدمتها من الأوربيين على اعتناق الإسلام.

تدفق إلى الأستانة كثير من الخبراء الذين رحب بهم الصدر الأعظم خليل حامد باشا، فاعتبره أعداء الإصلاح خارجاً عن الدين فاتهموه بتسهيل مهمة فرنسا في المشرق الإسلامي حتى عزلوه من منصبه ثم قتلوه، ووضعوا على جثته شعاراً بأنه عدو للدين والدولة.

وبنهاية القرن الثامن عشر لحق بالدولة العثمانية عدة هزائم على يد الروس والنمساويين، وعقدت عدة معاهدات مذلة أثبتت لسلاطين الدولة العثمانية أن لا مناص من الأخذ بسبل التقدم عن أوربا، لإنقاذ الدولة من السقوط في الهاوية. انصبت معظم جهود الإصلاح في المجال العسكري من تنظيم وتسليح وتدريب، وكانت فرنسا هي جسر التواصل بين الدولة العثمانية وأوربا، باعتبارها الحليف الأوربي التقليدي للدولة العثمانية، على الرغم من وقوعها في تناقض سياسي مع الدولة العثمانية بمحاولة نابليون بونابرت الاستيلاء على مصر في أواخر القرن الثامن عشر.

آمن سليم الثالث (١٧٨٩– ١٨٠٧م) بضرورة إصلاح الجيش والإدارة، فطلب من كبار موظفيه تقديم تقارير توضح آراءهم في الإصلاح، كما افتتح سفارات لبلاده في لندن وباريس وڤيينا، لينقلوا عن هذه البلاد، كما تأثر

بإصلاحات روسيا في الجيش. اقتنع سليم بضرورة إصلاح الجيش وتطوير التعليم في المجال العسكري، وتطوير الإدارة المحلية في الأقاليم لتقليص سلطة حكام الأقاليم، وإلغاء نظام الالتزام. استقطب سليم الثالث الخبراء من فرنسا وإنجلترا وبروسيا والسويد، وأصدر مراسيم بإصلاح كل الفرق العسكرية، بما فيها الإنكشارية، فعقدت الاختبارات للضباط حيث تم استبعاد من لم يثبت كفاءة، وبدأ تعيين الضباط الجدد على أسس الكفاءة وحدها، والترقية وفق الأقدمية تفادياً للرشوة. وتم تنظيم السباهي على أساس الإبقاء على العشر فقط في خدمة الأرض، والاستعانة بالباقين في الخدمة العسكرية، وتم تسريح من تغيب عن الخدمة وصودرت إقطاعياتهم. وتم تقليص عدد فرق الإنكشارية إلى ٣٠،٠٠٠ مقاتل مع الاهتمام برفع كفاءتهم القتالية، وإلزامهم بالملابس الأوربية. وبدأ الانتظام في دفع المرتبات. كما تم تحديث تسليح هذه الفرق بأسلحة أوربية.

عارض الإنكشارية والسباهية استخدام الأسلحة الحديثة والتدريب عليها، تجنب سليم الثالث الاصطدام بهم فقد سبق لهم أن تخلصوا من عدد من سلاطين الدولة بالقتل، فأنشأ قوة مشاه جديدة تم تدريبها على الأسلحة الأوربية الحديثة سميت بالطوبجية "النظام الجديد". وأدخلت إصلاحات على الأسطول، فتم توسعة الترسانة الأساسية وأُنشئت ترسانات جديدة في الأقاليم. وتم إصلاح السفن القديمة مع بناء عدد كبير من السفن الجديدة على الطراز الحديث، وتم تطوير الخدمات الصحية في السفن وطبق نظام الحجر الصحي، وتم تحديث دراسات مدرسة البحرية على النمط الأوربي. وزاد سليم الثالث أعداد فرق الطوبجية الجديدة إلى ستين ألف مقاتل، وقد أبلت هذه الفرق بلاء حسناً في وقف تجاوزات الإنكشارية في الروميللي، كما لعبت دوراً بارزاً في التصدي لنابليون بونابرت في بلاد الشام ومنعه من السيطرة على عكا.

غير أن عقلية الإدارة العثمانية المسيطرة – بعيداً عن السلطان– لم تتقبل فكرة الإصلاح ولم تسلم به، ظهر ذلك جلياً عندما أرسل السلطان فرقة من النظام الجديد لجمع الجنود من ولايات الروميللي سنة ١٨٠٦م تصدى لها الأعيان وعاونهم في ذلك الإنكشارية، فاضطر السلطان سليم الثالث أن يستجيب لهم، فعزل قادة النظام الجديد ووضعهم تحت قيادة معارضيه، ووضع أغا الإنكشارية في الصدارة العظمى، علهم يرضوا عنه فكان في ذلك نهايته، إذ حرم نفسه من حماية القوات الموالية له.

وفي عام ١٨٠٧م تمرد الإنكشارية ضد ارتداء الملابس الأوربية وعمت الفوضى إثر ذلك، فتمكن الإنكشارية من التخلص من دعاة الإصلاح وأرغموا السلطان على إلغاء النظام الجديد. وانضم شيخ الإسلام إلى الإنكشارية في التحريض ضد السلطان باعتباره أدخل بدعاً بالتعاون مع الأجانب، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، فانسحب السلطان طواعية ليحافظ على حياته، تاركاً الحكم لمرشح الرجعيين مصطفى الرابع ليكون ألعوبة في يدهم، وبوصوله للحكم تم إلغاء كل الإصلاحات التي جاء بها سليم الثالث وأغلقت المدارس وأعيدت التيمارات المصادرة إلى أصحابها، وأعيد المفصولون من الخدمة العسكرية، بما يدل على أن الإصلاحات في الدولة العثمانية إلى هذه الفترة كانت مرتبطة بأشخاص لا بالمؤسسات والفكر الإداري العام.

الإصلاحات العصرية:

تمكن الرجعيون في سنة ١٨٠٨م من قتل سليم الثالث في عزلته ظناً منهم أنهم بذلك يتخلصون من آخر دعاة الإصلاح، وما لبث أن خلعوا مصطفى الرابع وقتلوه، فوصل إلى العرش السلطان ***محمود الثاني*** (١٨٠٨–١٨٣٩م) وكان سليم قد انفرد به في عزلته وأقنعه بمسألة الإصلاح. كان محمود الثاني شديد الدهاء، فانحنى أمام عاصفة الرجعيين وألغى كل الإصلاحات، ومكث ينتهز الفرصة سنوات عدة.

واجه محمود الثاني أخطاراً جساماً داخلية وخارجية امتدت طوال فترة حكمة، تمثلت الأخطار الخارجية في تزايد الأطماع الأجنبية فرنسية وبريطانية وروسية، لاسيما بعد حملة بونابرت على مصر، وتوجت باحتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠م. والأخطار الداخلية متمثلة في ثورات الأعيان وتمردهم ومحاولات الحكام المحليين الانفراد بالسلطة على حساب السلطة المركزية للدولة، إضافة إلى الحركات الانفصالية والاستقلالية التي تمثلت في الدعوة السلفية وآل سعود في شبه الجزيرة العربية والمماليك في العراق وزعامات الشام والقرمنلية في ليبيا ووصلت إلى ذروتها في محاولة محمد علي الانفصال والتوسع على حساب الدولة الأم، وثورة اليونان والتدخل الدولي لدعم انفصالها واستقلالها عن الدولة العثمانية، وأن كان محمود الثاني قد تغلب على مشاكل دولته إلا أن المشكلتين الأخيرتين في مصر واليونان قد أعيتاه واستنزفت قواه وأذنت للقوى الكبرى بالتدخل المباشر في الشأن العثماني بشكل أو بآخر.

ووسط هذا الزخم من المشكلات ومحاولات إيجاد حل لكل منها على حده نجح محمود الثاني، وتمكن من توظيف مشكلة مصر لصالحه، فاستفاد من جهود محمد على في القضاء على آل سعود في شبه الجزيرة العربية ومواجهة ثورة اليونان، كما سار في إصلاحاته على نسق واليه على مصر في بناء الدولة الحديثة. وتمكن من إفساح المجال أمام الإصلاحات الحديثة على النمط الأوربي، ولضمان نجاح الإصلاحات وضع محمود الثاني عدة أسس أهمها:

- ❖ أن تشمل الإصلاحات جميع جوانب الحياة ولا تقتصر على الجانب العسكري.
- ❖ القضاء على المؤسسات الرجعية القديمة قضاء مبرماً.
- ❖ أن يسبق عمليات الإصلاح تخطيط دقيق يضمن نجاح الفكرة عند إخراجها إلى حيز التنفيذ.

اعتزم محمود الثاني تنفيذ أول إصلاحاته في عام ١٨٢٦م، أي بعد ثمانية عشر عاماً من وصوله إلى الحكم، فبدأ بالتخلص من الإنكشارية بطريقة تبدو للجميع أنها رد فعل طبيعي لسلوكهم، فأعلن عزمه على إنشاء نظام عسكري جديد وتحديث الإنكشارية، الذين عارضوا التحديث بكل شدة، وحاولوا إثارة الجماهير ضد محمود الثاني، فأعد لهم مذبحة مروعة في العاصمة راح ضحيتها حوالي أربعة آلاف على نسق مذبحة المماليك في مصر، ثم تتبع فلولهم في الأقاليم، وحل أوجاق الإنكشارية وأحرقت أعلامهم وجرم استعمال اسمهم، وتم حل الطريقة الصوفية البكتاشية التي ارتبط بها أوجاق الإنكشارية وأعدم ثلاثة من مشايخها شنقاً بدعوى خروجهم عن الإسلام، بحكم مؤيد بفتوى شيخ الإسلام، فكان ذلك أول إبادة لمؤسسة رجعية طالما عانت الدولة من تمردها. وأتبعها محمود الثاني بحل آخر إقطاعيات السباهي، وأصدر أوامره بإنشاء قوة جديدة اسمها "العساكر المحمدية المنصورة"، وأغلق السلطان محمود الثاني محاكم المصادرة وانتزع حق الإعدام من حكام الأقاليم. [١]

ومما لاشك فيه أن إلغاء إقطاعيات السباهي والتيمارات في سنة ١٨٣١م وضع حداً لطبقة اقتصادية عسكرية اعتمدت عليها الدولة العثمانية فترة طويلة من الزمن، وسمحت بنمو طبقة برجوازية محلية في مناطق الروميللي، ساهمت في نمو الروح القومية في تلك المناطق وأدت في النهاية إلى محاولات الانسلاخ عن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر.

انتظم السلطان محمود الثاني في حضور جلسات الديوان، فأعاد هذه العادة التي أهملها سلاطين آل عثمان منذ زمن سليمان القانوني، وتقوي هذه العادة نفوذ السلطان وتعيد له مكانته القديمة. ثم اتخذ عدة إجراءات إصلاحية للقضاء على فساد الأجهزة الإدارية والمالية؛ فألغى الألقاب غير

([١]) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١٨٥- ١٨٩

المرتبطة بوظائف الدولة، وألغى الجبايات التي كان يفرضها رجال الدولة على السكان لدى مرورهم عليهم، وضم أراضي التيمارات والزعامات لأراضي الدولة وأجرى أول إحصاء للأرض الزراعية لتحديد الضرائب، ولكي يقضي على مفاسد الجهاز المشرف على الأوقاف جعل أموال الأوقاف تحت إشراف الحكومة. وضبط السلطان محمود جباية الجزية تحت إشراف لجنة من القاضي والحاكم وأعيان الذميين.

بعد القضاء على الإنكشارية قرر محمود الثاني إنشاء جيش جديد مكون من ١٢,٠٠٠ مقاتل من المجندين لمدة ١٢ سنة، يشكلون فرقاً عسكرية في سلاحي المشاة والفرسان، يقوده ساري عسكر (قائد عام) هو نفسه ناظر الحربية، واستعان بطاقم ضباط بروسي للإشراف على تدريب هذه القوات، وتحديث مصانع الأسلحة، وإعداد خرائط لمناطق الحدود يوضح عليها مناطق إنشاء القلاع والحصون، كما أرسل بعثات منتقاة من طلاب الكتاتيب الذين تلقوا تعليماً فنياً سريعاً أرسلهم إلى دول أوربا لتلقي العلوم الهندسية والطبية وغيرها من العلوم المطلوبة للجيش، وتم إعداد الكوادر الإدارية في مدارس خاصة بها تعلم اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية والتركية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات، وهكذا اهتم محمود الثاني بالتعليم في قمته لخدمة المؤسسة العسكرية والإدارية للدولة ولم يهتم بالقاعدة. وتم تحديث البحرية العثمانية بخبرات إنجليزية أمريكية. وقد تأثر محمود الثاني بواليه على مصر محمد علي في التحديث.

وفي إطار التعامل مع الدول الأوربية اعتمدت الدولة العثمانية على مترجمين مسيحيين، لكن محمود الثاني تمكن من تعليم فئة من أبناء الدولة لغات أوربية لتهيئة كوادر تحمل عبء العمل في سفارات الدولة في العواصم الأوربية، وأتقن أبناء هؤلاء لغات الدول التي خدموا فيها، فعادوا إلى بلادهم يقودون التحديث فيما بعد. وأصدر السلطان محمود الثاني أوامره لموظفيه وجنوده بارتداء السراويل الأوربية (البنطلونات) والمعاطف الطويلة (التركية)

والطرابيش التي أدخلها القبطان خسرو باشا إلى الدولة العثمانية سنة ١٨٢٧م عندما اشترى مجموعاً وأجرى بها استعراضاً لرجاله أمام السلطان فأعجب بها، فأمر بارتدائها بدلا من العمامة التي اقتصرت على رجال الدين، وبدأ السلطان بنفسه فارتدى هذه الملابس والطربوش وظهر بها في المحافل وحضر الحفلات. [١]

وعمل محمود الثاني على ربط أرجاء الدولة بالسلطة المركزية بالبرق والبريد وخطوط السكة الحديد، وأنشأ جريدة "تقويم الوقائع" على نسق الوقائع المصرية، وقام بتحديث الإدارات تمهيداً لتحويلها على نظارات (وزارات) مثل الداخلية والخارجية والخزانة (المالية) وجمع قيادة النظارات تحت قيادة الصدر الأعظم على النسق الأوربي فجعل منه الوزير الأول (رئيس الوزراء) بعد أن كان نائباً عن السلطان وكان يتمتع بسلطات مطلقة، فقلص من سلطاته في النظام الجديد. وأنشأ محمود الثاني في عام ١٨٣٨م مجلس الأحكام العالية لإعداد اللوائح الجديدة.

لم تحقق إصلاحات محمود الثاني نجاحاً كبيراً لكونها جزئية ولارتباطها بالمؤسسة العسكرية، لكنها قضت على جانب كبير من المؤسسات الرجعية وفي مقدمتها الإنكشارية والطريقة البكتاشية طبقة الأعيان وأضعف سلطة حكام الأقاليم، فمهد الطريق أمام خلفائه لتكملة الإصلاح، وأوصى ابنه عبد المجيد أن يسير في طريق الإصلاح.

خط شريف گلخانه (١٨٣٩م):

أثارت إصلاحات محمود الثاني التيار المحافظ في الدولة فاتهم الإصلاحيين بالكفر والإلحاد، وحاول هذا التيار الاستشهاد بما لحق بالدولة العثمانية من هزائم على يد محمد علي، واعتبر هذا التيار محمد علي بطلاً يحافظ على الشريعة. والحقيقة أن محمد علي استقى إصلاحاته من النمط

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص ١٩٣- ١٩٥

الأوربي، وما إصلاحات محمود الثاني إلا صورة مكررة مما قام به واليه (المتمرد) في مصر. وعلى الجانب الآخر حاول الإصلاحيون إلقاء تبعة الهزائم على كاهل المحافظين، وأن أسباب الهزائم ترجع إلى عدم اكتمال الإصلاحات على النمط الأوربي.

نجح مصطفى رشيد باشا[١] في إقناع السلطان الجديد ***عبد المجيد*** (١٨٣٩- ١٨٦١م) بضرورة اللعب على موازين القوى الدولية واستبدال الامتيازات الروسية – التي حصلت عليها في أعقاب انتصارات محمد على في حرب الشام الأولى وبمقتضى اتفاقية خنكار إسكله سي ١٨٣٣م- بالنفوذ الأوربي للتصدي لأطماع محمد علي وإبعاد الخطر الروسي، مقابل الاهتمام بمسيحي الدولة وقبول بعض التدخلات الأوربية في الشأن الداخلي العثماني. في حفل بهيج في قصر الزهور حضر لأول مرة كبار رجال الدين المسيحيين وحاخامات اليهود مع كبار رجال الدولة، وفي حضرة السلطان عبد المجيد قرأ رشيد باشا الإصلاحات التي تضمنها خط شريف گلخانه، ورفعها إلى الصدر الأعظم الذي قبله ووعد بتنفيذ الإصلاحات التي دعا لها شيخ الإسلام وأطلقت المدافع طلقات البهجة. [٢]

جاء خط شريف گلخانه خطوة أولى في سلسلة التنظيمات الخيرية[٣]على طريق إصلاح الجهاز الإداري على النمط الأوربي، والحد من سلطة السلطان وجهازه الحاكم، وقد نجح الإصلاحيون في هذا الخط في

---

(١) مصطفى رشيد باشا من زعماء الإصلاح، عمل سفيراً للدولة العثمانية في لندن وباريس، وتشبع بفكرة الإصلاح لما رآه من تقدم في الدول الأوربية، ثم تولى وزارة الخارجية، وتولى الصدارة العظمى خلال الفترة من ١٨٤٦- ١٨٥٢م.

(٢) أحمد عبدالرحيم، مرجع سابق، ص ص ١٩٩، ٢٠٠

(٣) استمرت التنظيمات الخيرية حتى صدر الدستور في سنة ١٨٧٦م

الدمج بين التقاليد القديمة والنظم الأوربية الحديثة وبخاصة النظم والمبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية.[١]

تضمن خط شريف گلخانه عدة مبادئ أهمها:

- ❖ المساواة بين جميع رعايا الدولة بصرف النظر عن الجنس أو الديانة، وتأمين أرواحهم وأملاكهم، وإلغاء حق ولاة الأقاليم في مصادرة الأملاك، وحق جميع الملل في علانية المحاكمات، وفق قوانين الدولة.
- ❖ إلغاء نظام الالتزام وإيجاد نظام ضرائبي أكثر عدالة.
- ❖ إلغاء نظام الجندية القديم واستحداث نظام جديد يقوم على التجنيد لمدة لا تزيد عن خمس سنوات، وهو تأكيد لتفكيك المؤسسة العسكرية القديمة.

أثار خط شريف گلخانه ردود أفعال متباينة على كافة المستويات داخلياً وخارجياً، فإذا كانت الدول الأوربية لاسيما بريطانيا وفرنسا قد استبشرت به للحفاظ على وحدة الدولة، واعتبرته خطوة على طريق المساواة بين رعايا الدولة المسلمين وغير المسلمين غير أنها انتقدت بقاء نظام الجزية معمولا به داخل الدولة، أما روسيا والنمسا فقد عملتا على عرقلة الإصلاحات. وفي الداخل لقيت الإصلاحات معارضة الطبقة العليا من الملتزمين المسلمين والمسيحيين في البلقان الذين تمتعوا بخصومات ضرائبية كبيرة في النظام القديم، لذا انتقدوا إلغاء النظم القديمة والمساواة في دفع الضرائب بشدة. وانعكس هذا الوضع على عملية جمع الضرائب فثارات العديد من الاضطرابات، وأثر ذلك سلباً على إيراد الخزينة في سنتي ٣٩/ ١٨٤٠م، بينما كانت الدولة في ظروف الحرب مع محمد علي.

واجه خط شريف گلخانه مشكلات عند التنفيذ لكثرة المعارضين وعدم وجود كوادر إدارية يعتمد عليها الإصلاحيون، لذا كادت العاصفة أن تطيح

---

(1) Stanford Show, **History of the Ottoman Empire and modern Turkey**, Vol. II (London, 1978) p. 61

بالإصلاح الجديد حتى أن السلطان اضطر إلى استبعاد رشيد باشا نفسه سنة ١٨٤١، ثم أعاده مرة أخرى عام ١٨٤٥م. استوعب رشيد باشا الدرس جيداً؛ فأعد كوادر إدارية تتحمل عبء النظام الجديد، وأجرى إصلاحات في نظام التعليم والقضاء والجيش، ففي التعليم حدث المناهج الدراسية وزاد البنية الأساسية للمدارس وعدل الرواتب، وفي القضاء أنشأ المحاكم المختلطة التي تقبل شهادة غير المسلمين، وعمل فيها قضاة أوربيون إلى جانب المسلمين في قضايا التجارة التي يكون الأجانب أطرافاً فيها. وقسم الجيش إلى قسم نظامي يضم المجندين والمتطوعين، وآخر احتياطي ممن انتهت مدة خدمتهم، ويتلقى القسم الأخير تدريبات على فترات متباينة، ليكون جاهزاً في حالات الضرورة القصوى، وحددت مدة الخدمة بخمس سنوات فقط.[١]

حظيت الإصلاحات بدعم السلطان عبد المجيد خلال الفترة من ١٨٤١– ١٨٥٣ وهي الفترة التي تمتعت فيها الدولة العثمانية بحالة من الهدوء والسلم، فيما بين حروب محمد علي وحرب القرم. واستمرت الإصلاحات إلى أن توفي رشيد باشا سنة ١٨٥٨م وتولى تلامذته الأمر من بعده.

الخط الهمايوني (١٨٥٦م):

ادعت روسيا حمايتها لرعيا السلطان العثماني من الأرثوذكس – وهم يشكلون غالبية المسيحيين– وادعت فرنسا رعايتها للكاثوليك، في حين أن الاتفاقيات بين كلتا الدولتين والسلطان العثماني لم تنص على ذلك صراحة، ولما فشلت روسيا في إقناع بريطانيا باقتسام أملاك الدولة العثمانية باعتبارها رجل أوربا المريض حاولت الدخول من باب حماية الأرثوذكس والأماكن المقدسة، واستغلت الظروف الصعبة التي يمر بها السلطان العثماني لترغمه على التصديق على امتيازات جديدة لصالح هذه الملة، وهم السلطان

([1]) Stanford Show, Op. cit, Vol. II, p. 63

العثماني سنة ١٨٥٢م التصديق على بعض التنازلات للأرثوذكس، ومنها تسليمهم مفاتيح بيت لحم وبعض الأماكن المقدسة، لكن سفيري بريطانيا وفرنسا شجعاه على رفض مطالب روسيا، فأعلن القيصر الحرب على الدولة العثمانية، وهي الحرب المعروفة بحرب القرم ١٨٥٣م.

احتلت روسيا ولايتي الدانوب ولاشيا وملدافيا في نوفمبر ١٨٥٣م، وحطم الأسطول الروسي بعض قطع البحرية العثمانية، فتقدمت قطع من الأسطولين الفرنسي والبريطاني فدخلت البحر الأسود في فبراير ١٨٥٤م. وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على روسيا وانضمت لهما سردينيا. دارت الحرب على جزيرة القرم مقر البحرية الروسية واستمرت الحرب حتى أواخر عام ١٨٥٦م، ثم بدأت مفاوضات المفاوضات بوساطة نمساوية مع تهديد بالانضمام إلى الحلفاء إذا لم تستجب روسيا.

أثناء المفاوضات أطلق السلطان العثماني مرحلة ثانية من التنظيمات الخيرية ممثلة في الخط الهمايوني في ١٨ فبراير ١٨٥٦م، أكد الخط الجديد على ما جاء في خط شريف گلخانه، وضحت التأثيرات الغربية في الخط الجديد أكبر من سابقه ونص على التعديلات بشكل أدق، إرضاءً للدول التي تدافع عن كيان الدولة العثمانية ضد الأطماع الروسية، فيما تراجعت التقاليد القديمة. أقر الخط الجديد عدم تطبيق عقوبة الإعدام على المرتدين عن الإسلام، وأقر الخدمة العسكرية على المسلمين وغير المسلمين، فلم يعد هناك مجال لجمع الجزية، وساوى بين مواطني الدولة العثمانية.

ويهدف الخط الهمايوني الجديد إلى استثارة عواطف الدول الأوربية للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في مواجهة أطماع روسيا في أراضي الدولة العثمانية، وبالفعل أدى تدخل الدول الأوربية إلى إرغام روسيا على قبول شروط صلح النمسا ثم صلح باريس مارس ١٨٥٦م وأهم بنوده:

- ❖ احترام استقلال ممتلكات الدولة العثمانية.

- ❖ قبول مبدأ التحكيم في أي خلاف ينشب بين الدولتين.
- ❖ تعهد الدولة العثمانية بتحسين أحوال المسيحيين لديها دون تدخل أي دولة في شؤونها الداخلية.
- ❖ حق الدولة العثمانية في إغلاق مضيقي البسفور والدردنيل في وجه أية سفن حربية أجنبية.
- ❖ حياد البحر الأسود فلا تسمح فيه بسفن حربية ولا تقام على شواطئه مؤسسات حربية.
- ❖ حرية الملاحة في نهر الدانوب واستقلال ولايتيه (مولدافيا وولاشيا) تحت السيادة العثمانية.
- ❖ استقلال الصرب تحت السيادة العثمانية، وللعثمانيين وضع حامية في أراضي الصرب.

وقد ساهمت المساواة التي جاء بها الخط الهمايوني الجديد بين الملل الأخرى والإسلام في زيادة الروح القومية لدى شعوب البلقان، فلم تعد في حاجة إلى الإدارة المركزية العثمانية، ونمت الروح القومية لدى اليونانيين فالصرب ثم البلغار، وفي القرن العشرين انتقلت العدوى إلى العالم العربي.

الإصلاح في فترة التنظيمات

شهد التعليم تحديثاً على النمط الأوربي، فإلى جانب تعليم القرآن بدأت المدارس في القرن التاسع عشر تظهر ببطء شديد، ثم تكونت لجان من المهتمين بالتحديث في الفترة من الأربعينيات إلى أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر فوضعوا قانون التعليم الصادر في عام ١٨٦٩ والذي قسم التعليم إلى تعليم عام إلزامي للجميع ومدته أربع سنوات للجنسين بنين وبنات مع الفصل بينهما، وانتشرت مدارس هذه المرحلة في الريف والمدن على حد سواء، ثم مرحلة التعليم الراشدي ومدتها أربع سنوات أيضاً، واقتصرت

المرحلة الثانية على المدن الكبرى. وقسم التعليم الثانوي إلى مرحلتين سفلى وعليا، ويأتي من بعدها النظام الجامعي ويسمى دار الفنون.

وإلى جانب مدارس التدريب العليا والمدارس العسكرية تأسست أول جامعة عام ١٨٧٥م. وسمح القانون بالتعليم الخاص على أن تقدم المدرسة مقرراتها والكتب التي تدرس في كل مقرر لمجلس التعليم بالولاية لإقرارها، وأحياناً ترفع إلى نظارة المعارف، لضمان الرقابة على التعليم الذي يتعارض مع الشريعة وسياسة الدولة. وأتاحت الدولة فرصة أمام الإرساليات الأجنبية بريطانية وأمريكية وألمانية وإيطالية، فزاد التعليم التبشيري لاسيما الفرنسي منه.

وقد طالت الإصلاحات النظام القضائي فإذا كان قانون الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والمواريث) قد ظل كما هو بلا تعديل لأن أساسه الشريعة، فإن الإصلاح كان سيد الموقف بالنسبة للقوانين التي تمس التجارة والأحوال الجنائية وكان الإصلاح في معظمه مستمد من القانون الفرنسي.

وفي مجال الإدارة أصبح قوام الجهاز الإداري في الدولة طبقة برجوازية جديدة علمانية مدربة على أسس أوربية، بديلة عن الجهاز الحكومي القديم التابع للسلطان العثماني، ويتمتع الجهاز الإداري الجديد بشيء من الحرية بعيداً عن نظام التبعية والعبودية للسلطان الذي كان يمثله النظام القديم. كما شمل التحديث نظام إدارة الأقاليم حيث تكونت إلى جانب حكام الأقاليم مجالس استشارية من أهالي الأقاليم، بما يشعرهم بالمشاركة في حكم بلادهم، كما تقلصت سلطات حكام الأقاليم.

الجدير بالذكر أن الإصلاحات العثمانية لم تطل الجانب الاقتصادي، باستثناء الإصلاح الضرائبي، فلم تشهد الزراعة أو الصناعة تطوراً يذكر، لذا زادت مصروفات الدولة عن إيراداتها، لاسيما مع فقد الدولة بعض مصادر الدخل باستقلال بعض الأقاليم التي كانت تابعة للدولة. والحقيقة أن أي

إصلاحات لا تمس الاقتصاد لا طائل من ورائها، فالاقتصاد أساس القوة في أي كيان سياسي. والواقع أن الإصلاحات الجديدة والتنظيمات لم تحافظ على كيان الدولة فحصلت اليونان على استقلال تام ومصر على استقلال ذاتي وكذلك لبنان والصرب وبلغاريا تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية.

الفصل السابع

السلطان عبد الحميد الثاني

وقضية الخلافة

لابد عزيز القارئ أنك سمعت جدلا كثير ولغطا حول الخلافة الإسلامية زمن العثمانيين، فماذا تعرف عن الخلافة العثمانية؟ ولماذا تشبث السلطان عبد الحميد بفكرة الخلافة؟ ولماذا حاول الغرب الأوربي محاربة فكرة الخلافة العثمانية؟ فشكك مؤرخو بريطانيا في انتقال الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى آل عثمان. نحاول في هذا الفصل أن نجيب على هذه الأسئلة قبل أن ننتقل إلى المشهد الأخير في الدولة العثمانية الذي انتهى بإلغاء مصطفى كمال أتاتورك الخلافة وتنازل عن الأملاك التي لحقت بالدولة العثمانية فترة طويلة من تاريخها وقلص دولته فاقتصرت أملاكها على آسيا الصغرة وجزء صغير من البلقان حول الأستانة، تاركا باقي أملاك الدولة العثمانية لتقع فريسة للاستعمار الغربي.

قضية الخلافة:

لم تكن هجمة المغول سوى المسمار الأخير في نعش الخلافة العباسية، فقد جاء المغول إلى بغداد في وقت كانت الخلافة في حالة يرثى لها، وكانت حركات الانفصال والتشرذم عن دولة الخلافة قد زادت في العصر العباسي الثاني، ذلك التشرذم الذي يعود بجذوره إلى الانقسام والتفرق الذي شهده العالم الإسلامي منذ صفين، وظهرت فرق وأفكار شاذة حاولت كل منها أن تجعل لنفسها دولة منفصلة عن الخلافة الأم، فانشق أحد أمراء بني أمية واستقل بالأندلس، وزادت الحركات الانفصالية في العصر العباسي الثاني شرقاً وغرباً؛ وانفصلت المغرب في دويلات للأدارسة وبني مرين، واستقل الإخشيد بمصر ثم ابن طولون ثم الفاطميون في مصر والشام، وقامت دويلات في المشرق الإسلامي للغزنويين والبويهيين وغيرهم.

وغدت أرض الخلافة بقعة متقطعة الأطراف والأوصال، وتكالب عليها الصليبيون فكادت أن تندثر لولا أن قيَّد الله لها دولة السلاجقة فحموا أطرافها

الشمالية الغربية وتوسعوا على حساب الدولة البيزنطية من (١٠٧٠-١٣٠٠) وفي الداخل تمكن الأيوبيون والمماليك من التصدي للصليبيين والمغول وأخرجوهم من ديار السلام بعد أن استباحوها فترة طويلة من الزمن وبخاصة الصليبيين، وتقف حطين وعين جالوت شاهدتان على تصدي هاتان الدولتان لهؤلاء الغزاة، لكن هذا التفوق العسكري لا يعدو كونه انتفاضة عسكرية لا تستطيع أن تخفي حقيقة تواري الحضارة عن ديار المسلمين، فما لبث الإسلام نفسه أن توارى عن شبه جزيرة أيبيريا بعد ثمانية قرون من الحضارة.

أذنت السنن الكونية آنذاك بانتقال الحضارة الإنسانية من ديار الإسلام إلى بقعة جديدة هي أوربا التي أخذت بأسباب الحضارة وخرجت شعوبها بسفن عملاقة تستكشف وتحتل وتجلب خيرات البلاد المكتشفة إلى بلادهم. وفي زخم الكشوف خرج البرتغاليون يحاولون احتلال أجزاء من الشمال الأفريقي ودخلوا البحر الأحمر يهددون مقدسات المسلمين، ووصلوا إلى الهند دوراناً حول أفريقيا، فقطعوا طريق التجارة على المسلمين وحطموا الأسطول المملوكي في ديو إحدى موانى الهند ١٥٠٩م.

ووسط هذا الوضع المتردي للمشرق الإسلامي ظهرت الدولة العثمانية لتأخذ بزمام المبادرة وتحقق انتصارات باسم الإسلام على حساب الدولة البيزنطية التي كانت تمر بخريف العمر آنذاك، فنجح العثمانيون في إيصال الإسلام إلى قلب أوربا، وتوجوا انتصاراتهم بفتح القسطنطينية ١٤٥٣م، الحلم الذي طالما راود المسلمين منذ أمد بعيد. لتنتهي إمبراطورية الروم الشرقية (البيزنطية) من الوجود بعد أحد عشر قرناً من الزمان. أعلن الفاتح القسطنطينية عاصمة لدولته باسم إسلامبول أي ديار الإسلام، وبنى قبة فوق قبر أبي أيوب الأنصاري الصحابي الجليل الذي استشهد تحت أسوار القسطنطينية، وبنى إلى جوار القبة مسجداً، غدت البيعة تؤخذ فيه لسلاطين آل عثمان حيث يقلدهم إمام المسجد السيف شعاراً يدل على العمل للإسلام.

ومن نافلة القول أن الدولة العثمانية نشأت على تخوم الدولة البيزنطية منذ بدايتها على فكرة الجهاد، ولم تغب فكرة الجهاد عن الدولة حتى فتحت القسطنطينية ونشرت الإسلام في شرقي أوربا، ورفعت لواء الإسلام وهي تدافع عن المشرق العربي ضد هجمات الدولة الصفوية من جانب وهجمات البرتغاليين من ناحية أخرى. ولم يرفع العثمانيون في أدبياتهم القومية التركية مطلقاً، إنما تغنوا بالإسلام فقط فأبو الوطنية في الدولة العثمانية الشاعر نامق كمال يستثير في كتاباته الحمية الوطنية المنبعثة من الحمية الإسلامية لا من القومية التركية. [١]

ومما لاشك فيه أن الانتصارات التي حققها العثمانيون باسم الإسلام وفي مقدمتها فتح القسطنطينية قد حقق للمسلمين قاطبة أمانيهم في نشر الإسلام ورفع رايته في زمن عز فيه الانتصار وتوقفت فيه الفتوحات وانحصر الإسلام عن الأندلس فطوى صفحة مضيئة للمسلمين في غرب أوربا. فإذا كان العثمانيون قد اعتبروا تاريخ الإسلام من قبلهم تاريخا لهم فإن المسلمين اعتبروا تاريخ الدولة العثمانية جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام. وهذه الوحدة في البناء الإسلامي التي لا تفرق بين جنس وآخر إلا بالتقوى تقرب إلى الأذهان فكرة قيادة الدولة العثمانية للعالم الإسلامي، وهو واقع شهده مسرح الأحداث في شكل وقائع فعلية فترة طويلة من الزمن في مطلع العصور الحديثة.

وقد اختلفت الآراء في قضية انتقال الخلافة إلى سلاطين آل عثمان، وترتبط إثارة القضية بفترة الضعف العثماني في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتحديداً مع مشروع السلطان عبد الحميد الثاني (الجامعة الإسلامية) الذي يستهدف جمع كلمة المسلمين في جميع أنحاء

([١]) محمود الشاذلي، المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩– ١٩٢٤م (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩) ص ٥٨

العالم في مواجهة الهجمة الغربية الشرسة على العالم الإسلامي، وقد شكك المؤرخون البريطانيون في فكرة انتقال الخلافة إلى آل عثمان، وعدم استيفائهم لفكرة الخلافة، لتفادي التفاف العالم الإسلامي حولهم.

وقد أكد كثير من المؤرخين المسلمين على انتقال الخلافة من العباسيين إلى آل عثمان عندما دخل السلطان سليم الأول مصر، وكانت القاهرة قد احتضنت الخليفة العباسي المتوكل بعد نكبة العباسيين على يد المغول، حفاظاً على هذا المنصب الذي يمثل رمزاً يلتف حوله العالم الإسلامي كله. واستند أصحاب الرأي القائل بالتنازل إلى دليل مادي؛ وهو أن السلطان سليم عندما عاد من مصر إلى استانبول اصطحب معه الخليفة المتوكل وآثار الخلافة المتمثلة في بردة الخلافة وبعض شعر من لحيته صلى الله عليه وسلم وسيف عمر بن الخطاب، ونظراً لأفعاله المشينة سجنه السلطان سليم في أحد الحصون ثم أعاده السلطان سليمان القانوني إلى القاهرة سنة ١٥٢٠م، وبقيت آثار الخلافة محفوظة في مسجد أبي أيوب في إستانبول إلى يومنا هذا. ويرى أحد الباحثين البارزين أن الخلافة لم تنتقل إلى سلاطين آل عثمان لعدة أسباب منها؛ أن سلاطين آل عثمان لم يتلقبوا بلقب الخلافة في مراسلاتهم،[١] وأن المؤرخين المعاصرين للأحداث مثل ابن إياس وأحمد فريد بك المرافق للسلطان سليم في يومياته وصاحب تاج التواريخ لم يذكروا حادثة انتقال الخلافة مطلقاً، كما أن لقب الخلافة آنذاك

---

(١) تلقب سلاطين الدولة العثمانية بالعديد من الألقاب ليس من بينها لقب الخليفة، من هذه الألقاب سلطان العالم، فلك الزمان الدوار، مدبر أمر الجمهور، سلطان سلاطين العالم، الملك المبارك الميمون، ذو الحظ السعيد المؤيد المظفر، ذو الخدم والحشم المتلألئ المضيء، ملجأ السلاطين، السلطان العالي الجاه، ظل الله، السلطان الأعظم والخاقان الأفخم، مالك رقاب الأمم، سلطان الغزاة والمجاهدين، حامي بلاد وأهل الإيمان، ماحي آثار الكفر والطغيان، ناصب لواء الشرع في الآفاق، سلطان العدل ملجأ أهل الدين ... إلخ لمزيد من الألقاب راجع: مصطفى بركات، مرجع سابق، ص ١٨

أصبح مبتذلاً بعد أن فقد كثيراً من مظاهر التقديس والاحترام. والمحصلة أن الخلافة لم تنتقل من العباسيين إلى آل عثمان.[١]

ومع ميلنا إلى الرأي الأخير في عدم انتقال الخلافة، لكننا نلفت الانتباه إلى أن سلاطين آل عثمان لم يحرصوا على التلقب بلقب الخلافة ربما لما لحق به من انحطاط أو لخوفهم من ظهور معارضين لأنهم ليسوا من العرب، فضلاً عن أنهم ليسوا من قريش، وهو شرط وضعه بعض فقهاء الأمة في الخلافة، لكن سلاطين آل عثمان بعيداً عن اللقب حازوا مكانة الخلفاء بمعناها العملي بما وصلوا إليه من اتساع ملكهم وبحملهم لواء الدفاع عن حدود العالم الإسلامي وحماية مقدساته، فحازوا سلطة روحية في العالم الإسلامي آنذاك تكافئ الخلافة في مكانتها.

أما المرة الأولى التي ذكرت فيها الخلافة في وثيقة رسمية فكانت في معاهدة كوچوك قينارجه في ٢١ يوليو ١٧٧٤م التي وقعت عقب انتصار الروس على الدولة العثمانية، وبمقتضاها أُبعدت الدولة العثمانية عن شبه جزيرة القرم، تمهيداً لضمها إلى روسيا بعد سبع سنوات، واحتفظ السلطان العثماني بحقه في الإشراف على تتار القرم، باعتباره خليفة المسلمين. [٢]

فللسلطان أن يعين خان التتار ويسمي قضاة الشريعة والإفتاء، وقد جاء تمسك العثمانيين بهذا الحق بعد فترة طويلة من إهمال لقب الخلافة في عصر القوة والازدهار. وقد يكون الدافع للتمسك بلقب الخلافة، وادعاء الحق في حماية الأقليات المسلمة في مواجهة السلطات المسيحية، تحديداً في هذا

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص ص ٨٣– ٨٥

(٢) جاء في نص المعاهدة "أما فيما يتعلق بالممارسات الدينية، فلما كان التتاري يعتنقون الدين الإسلامي، ولما كان جلالة السلطان هو في نفس الوقت خليفة الإسلام الأعظم، فإن على التتاري أن ينهجوا النهج الذي يتمشى مع تعاليم دينهم، دون مساس بالاستقلال السياسي والمدني الذي تقرر لهم" راجع: أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٦٦

الموقف هو المطالبة بحق مماثل لمطلب كاترين الثانية بحماية مسيحي الكنيسة الأرثوذكسية في المناطق التابعة للإمبراطورية العثمانية.[١]

السلطان عبد الحميد الثاني:

اهتم السلطان عبد الحميد بفكرة جمع كلمة المسلمين تحت راية الخلافة، وهذا التفكير الاستراتيجي هز الأوربيين وبخاصة بريطانيا الذي يضم تاجها عدداً كبيراً من المسلمين، ولاسيما في الهند درة التاج البريطاني آنذاك، ولاشك أن الفكرة تهدد بريطانيا بانتفاضة إسلامية في ممالكها ومستعمراتها، فبذلت جهدها لتفتيت دولته بالتعاون بعدة وسائل منها إفساد الجهاز الإداري العثماني بالرشوة، واستمالة العناصر المعارضة للسلطان عبد الحميد مثل الأرمن والقوميين الأتراك ويهود الدونمه وتمويلهم، وتبني وتشجيع الفكر الانفصالي لدى الجمعيات السرية في داخل الدولة العثمانية. إضافة إلى تبني الأفكار الهدامة في المجتمعات الإسلامية مثل حركة أحمد خان في الهند، الذي حارب الفكر الجهادي وأوجب طاعة الإنجليز باعتبارهم أولي الأمر.

كما اتخذ الأوربيون موقفاً سلبياً من الصراع العثماني الروسي، لمّا رأوا تفوق الروس، وتكتلوا في مؤتمر برلين ١٨٧٨م، لتشجيع القوميات البلقانية على الانفصال عن الدولة العثمانية، فاستقلت رومانيا وبلغاريا وألبانيا وضُمت البوسنة إلى النمسا إدارياً، ولم يغب عن الذاكرة تدخل الدول الأوربية لمساندة ثورة اليونانيين وتأييد انفصالهم عن الدولة العثمانية عام ١٨٢٧م.

أظهر السلطان عبد الحميد (١٨٧٦- ١٩٠٩م) هويته الإسلامية منذ وصوله إلى الحكم لذا تكتلت الدول الأوربية ضده، فأسرعت بفصل أجزاء كبيرة عن جسد الدولة؛ فأقر مؤتمر برلين الأول ١٨٧٨م ضم البوسنة

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٦٦

والهرسك إلى النمسا إدارياً، واستقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود وشمال بلغاريا، ويبقى جنوب بلغاريا تحت السيادة العثمانية، وفرضت فرنسا حمايتها على تونس ١٨٨١م، واحتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢م. وأخذت القوى الأوربية تفجر قضايا الانفصال في تركيا، فالنمسا تدعو البلقان العثماني إلى التمسك بقوميته، وروسيا تدعوه للتمسك بمذهبه الأرثوذكسي، والغرب الأوروبي يستثير الأرمن للثورة ضد الدولة العثمانية، والمسيحيون في بلاد الشام يتزعمون القومية العربية في مواجهة الفكرة الإسلامية العثمانية.

أدرك السلطان عبد الحميد أهمية الوحدة الإسلامية، وضرورة التنسيق بين جميع الدول الإسلامية السنة منها والشيعة، وضرورة الترفع عن أي خلافات أمام الهجمة الغربية الشرسة، كما أدرك بوعي محاولات بريطانيا لغرس الفكر القومي في نفوس المثقفين العرب، لإفساد فكرته في جمع كلمة المسلمين، ومما لاشك فيه أن الفكرة القومية تعمل على تفتيت العالم الإسلامي إلى قوميات يسهل السيطرة عليها وبث الفرقة بينها، وليس معنى ذلك أن الفكر القومي كله شر، فلا بأس من العمل بفكر قومي تحت مظلة الإسلام، أو بشكل لا يضر بمصالح باقي القوميات المسلمة الأخرى، لكن واقع الفكر القومي إلى الآن يعمل في عكس هذا الاتجاه.

اتخذ السلطان عبد الحميد عدة وسائل لتحقيق الوحدة الإسلامية منها :

أولاً : تخليص الجهاز الإداري من المتشبعين بثقافة غربية.

ثانياً: التشبث بعباءة الخلافة الإسلامية بوصفها رمزاً لجمع كلمة المسلمين، لمساندته ضد أهداف الغرب الاحتلالية. وقد تأخر أسلاف السلطان عبد الحميد في التمسك بمسمى الخلافة، وإن أدوا الدور المطلوب منهم باعتبارهم زعماء لأكبر دولة إسلامية في كثير من المراحل.

ثالثاً: تجنيد الدعاة والمشايخ والمفكرين المسلمين من مختلف الجنسيات لحمل لواء الدعوة لوحدة المسلمين وتدعيمهم بالوسائط اللازمة، ومن أبرزهم جمال الدين الأفغاني.

رابعاً: حاول السلطان عبد الحميد تعريب الدولة العثمانية، لإزالة الفجوة بينها وبين العالم العربي، لكنه وجد معارضة شديدة من رجال دولته، خوفاً من انهيار العنصر التركي. وخطوة التعريب كانت أفضل الخطوات لإيجاد اللُحمة مع العالم العربي، لكنها أيضاً تأخرت كثيراً.

خامساً: القيام بحملة تبرعات لبناء المساجد والمدارس وتجديدها في أنحاء الدولة، وهو أمر يحي في النفوس العمل الجماعي، ويخدم فكرة الجامعة الإسلامية.

سادساً: اتخذ السلطان بعض الصحف للدعوة للجامعة الإسلامية.

سابعاً: عمل السلطان على مواصلة النهضة العلمية التي بدأها أسلافه وتحديث الدولة.

ثامناً: كون السلطان رابطة من علماء التصوف في عاصمته، للربط مع مراكز الطرق الصوفية في جميع أنحاء العالم الإسلامي وتوجيهها للدعوة لوحدة المسلمين.

تاسعاً: إنشاء مدرسة العشائر، لتعليم أولاد رؤساء العشائر العربية في استانبول، لمدة خمس سنوات شاملة المصاريف، بهدف ضمان ولاء الكبار وغرس الانتماء للدولة لدى جيل الشباب.

عاشراً: حاول السلطان ربط أنحاء دولته بخطوط سكة حديد، لتسهيل حركة الحجاج والتجار والجند، وبدأها بربط دمشق بالمدينة المنورة عام ١٩٠٠م، تمهيد لمد الخط إلى العاصمة، واعتمد على التبرعات في تنفيذ مشروعاته، فافتتح التبرعات بخمسين ألف ليرة عثمانية ذهبية من جيبه الخاص، وتبرع

أمير حيدر أباد في الهند بإنشاء محطة المدينة المنورة من جيبه الخاص، فكانت التبرعات رمزاً لوحدة المسلمين.

حادي عشر: واجه السلطان أزمة اقتصادية فحاول التخفيف من أعباء الخزانة بالحد من إسراف القصر السلطاني والجهاز البيروقراطي في الرواتب والمأكل والملبس، حتى اتهمه خصومه بالبخل، لكنه واجه جهازاً بيروقراطياً ضخماً في حجمه ورواتبه، كان من الصعب عليه تقليصه في أي من الجانبين سواء الرواتب أو العدد، فكان هناك أربعون مشيراً وستون وزيراً وثلاثة عشر ناظراً وثمانون موظفاً من الدرجة الممتازة وما يقرب من أربعمائة موظف من الدرجة الأولى.[١]

كانت مشكلة الأرمن من أولى المشكلات التي واجهت السلطان عبد الحميد، والأرمن أمة منقسمة بين الدولة العثمانية وإيران وروسيا، عاش رعايا الدولة العثمانية من الأرمن منذ نشأة الدولة حتى القرن التاسع عشر في رغد من العيش استخدمتهم الدولة في دواوينها وكافة الأعمال الإدارية والمالية، لكنهم تطلعوا للاستقلال مع ضعف الدولة العثمانية، واستخدم الغرب عناصر منهم لإضعاف الدولة العثمانية، لاسيما العناصر التي تعلمت في الخارج وتلك التي تعلمت على يد الإرساليات الأجنبية، فأعلنوا التمرد والعصيان على السلطان عبد الحميد في مطلع حكمه فواجهتهم بكل قوة، فطالب الغرب الأوربي الدولة العثمانية في مؤتمر برلين الأول ضرورة الحفاظ على الأرمن وحمايتهم من الاضطهاد والمذابح التي يتعرضون لها، واستخدمت بريطانيا ورقة الأرمن للضغط على السلطان عبد الحميد في تنفيذ

---

(١) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية ١٨٩١- ١٩٠٨ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص ص ٥٢، ٥٣

الإصلاحات الدستورية واتخذت من القضية مبرراً للتدخل في الشأن العثماني. [١]

لم تكن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية تعني توقفه عن التحديث بشكل كامل، إنما كان عبد الحميد يقظاً لأعدائه حريصاً على مصلحة بلده، لذا استمر في الأخذ عن الغرب في تحديث التعليم على النمط الأوربي والعلوم التقنية التي تحتاج إليها دولته فتوسع في المدارس المتوسطة المؤهلة للجامعات، وأنشأ مدارس لذوي الاحتياجات الخاصة من الصم والبكم والعمي، كما أنشأ مدارس عليا في بغداد وبيروت وقونيه وسالونيك، وأنشأ في العاصمة كليات للعلوم والحقوق والآداب والعلوم السياسية والتجارة والطب البيطري والمعلمين والتعدين، وأرسل البعثات العلمية إلى فرنسا وألمانيا. علاوة على جهوده في تحديث مؤسسات البرق والبريد والسكك الحديدية والمياه والبلديات.

حاول السلطان عبد الحميد أني يحي في بلاده نهضة اقتصادية كبرى، بسلسلة من السكك الحديدية وإقامة مشروعات المياه على نهري دجله والفرات، كما حاول أن يزيد ضرائب الدخل من ٦% إلى ١١% لكن الظروف الداخلية ممثلة في الجهاز البيروقراطي، والظروف الخارجية ممثلة في موقف الدول الأوربية وبخاصة بريطانيا منه حال دون إحياء هذه النهضة كاملة بإعاقة المشاريع الكبرى وإثارة النعرات القومية والمشكلات الداخلية، فعارضت بريطانيا زيادة الضرائب، كما عارضت مشروعات السكك الحديدية العثمانية التي تهدف ربط أقاليمها بشرياً واقتصادياً وعسكرياً، بحجة أنها تمثل نفوذاً للألمان داخل الدولة العثمانية.

حاول الزعيم اليهودي تيودور هرتزل في زيارة لاستانبول إغراء السلطان عبد الحميد بتسديد ديون الدولة العثمانية والوقوف على جانبها في حروبها

---

(١) السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص ص ٤٤، ٤٥

مقابل فتح باب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين في أعداد صغيرة والسماح لهم بشراء الأراضي البور واستصلاحها وزراعتها، وفي ١٩٠٢م نشر هرتزل في الصحف الأوربية عدة مقالات يدافع فيها عن السياسة العثمانية في الأراضي الأوربية قبل سفره على استانبول لاستطلاع رأي السلطان عبد الحميد الثاني في العرض الذي قدمه له بشأن هجرة اليهود، لكن السلطان عبد الحميد اعتذر عن عدم قبول العرض قائلاً فلسطين وقف إسلامي لا أملك حق التصرف فيه، ثم عاد هرتزل بعد خمسة أشهر بعرض جديد لإنشاء جامعة من أعظم جامعات العالم في استانبول لخدمة أبناء تركيا بدلا من السفر للتعلم في الدول الأوربية، لكن عبد الحميد أصر على رفضه، وعزز رفضه بالتشديد على إجراءات إقامة اليهود في فلسطين بألا تزيد تصاريح إقامة الزوار اليهود لفلسطين عن ثلاثة أشهر، وفرض رقابة سلطانية صارمة على دخول اليهود وخروجهم ومنع تملكهم للأراضي والمباني، فانقلب اليهود ضد السلطان عبد الحميد. [١]

نجحت بريطانيا والدول الأوربية بالتحالف مع يهود الدونمه والمؤسسات الماسونية في جذب الجمعيات السرية التي تتبنى الفكر التوراني القومي الانفصالي ومولتهم المحافل الماسونية الصهيونية ووفرت لهم أماكن اجتماعاتهم، إيماناً منهم أن الطريق إلى فلسطين يمر عبر استانبول. فنشر الكاتب اليهودي الماسوني ليو كاهون كتاباً بعنوان " تاريخ الترك والمغول في آسيا من نشأتهم إلى سنة ١٨٠٥" حاول أن يؤصل فيه للقومية التركية للدولة العثمانية وينسب انتصاراتها ومفاخرها الحربية للأتراك لا للإسلام، كما اعتبر الإسلام مصيبة حلت بالأتراك فطمست حضارتهم، وعليهم إحياء هذه الحضارة، ويهدف الكتاب إلى تقديم دائرة الانتماء للقومية التركية على الانتماء للإسلام، وتنقية اللغة التركية من أية ألفاظ عربية، وقطع أي علاقة

([١]) السلطان عبد الحميد، **مصدر سابق**، ص ص ٣٧- ٣٩

بينها وبين اللغة العربية لغة القرآن بدعوى أنها لغة لا تساعد على التقدم والرقي، وأصبح هذا الكتاب يُدَرّسْ لأعضاء الجمعيات السرية التورانية في داخل الدولة العثمانية، ليكون لهم نبراساً يهتدوا به في طريقهم للتصدي للفكرة الإسلامية.

بدأت تركيا الفتاة بأفراد معدودين لا يزيد عددهم عن خمسة أفراد احتضنهم الغرب الأوربي، كان في مقدمتهم أحمد رضا بك مدير المعارف في بورصة الذي سافر إلى فرنسا للترويج لحرير بورصة فلم يعد، اجتذبته المحافل الماسونية فأرسل إلى السلطان لائحة إصلاحية، قال عنها السلطان في مذكراته أنها فارغة لا تحوي شيئا ذا قيمة، وأخذ يصدر مجلة "مشورت" وغيره كثير فتح لهم الغرب أبواق الصحافة وأتاح لهم التمويل المادي اللازم، ووزعت صحفهم ونشراتهم سراً داخل الدولة العثمانية، وتغافلت السلطات العثمانية وأهملت أمرهم فتعاظم شأنهم، ونمت الخلايا السرية نشطة داخل البلاد وخارجها، مستغلين ما أتاحته السلطات العثمانية من هامش الحرية تحت ضغوط ساسة أوربا.

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته أنه كان يعلم كل صغيرة وكبيرة عن تحرك هؤلاء لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأنه كان وحده، بينما هذه الشرذمة مؤيدة بكل قوى الدول الغربية تنسق بينهم المحافل الماسونية الصهيونية، وكان الإطاحة برؤوس بعض هؤلاء كفيلاً بإعادة الانضباط إلى الدولة، لكن السلطان عبد الحميد كان رحيماً بهم، فيقول إن إراقة الدماء طريق لا ينتهي، فآثرت محاورة هذه الفئة الضالة وتصحيح أفكارهم دون جدوى. ويبدو أن السلطان عبد الحميد قد خشي استعمال القوة خوفاً من التدخل الدولي لمساندة هؤلاء فأفسح لهم الطريق لكن السلطة تحتاج على حزم وشدة.

أولت بريطانيا وألمانيا أعضاء الجمعيات التورانية السرية في الدولة العثمانية اهتماماً خاصاً، في التمويل والتخطيط والعناية والحماية، فسيطر

الإنجليز على تركيا الفتاة في مناستر، فيما سيطر الألمان على أفراد الحركة في سالونيك، فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما ألقت السلطات المصرية القبض على الجاسوس اليهودي التركي إيلي فهمي عضو جمعية الاتحاد والترقي، وبحوزته وثائق كثيرة تدينه وعزم الخديوي عباس حلمي الثاني تسليمه للسلطات العثمانية تدخل اللورد كرومر وحول وجهة السفينة إلى إنجلترا ليفتديه من الإعدام.

نجح أفراد تركيا الفتاة بمساعدة المحافل الماسونية في الاتصال بالضباط من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وتنسيق العمل فيما بينهم لإحكام القبضة حول السلطان عبد الحميد الثاني، على الرغم من ملاحقة الأمن العثماني لأعضاء هذه المحافل في طول البلاد وعرضها. وكانت سالونيك مرشحة بقوة لتقود التمرد ضد السلطان العثماني، لأن معظم سكانها من الأوربيين اليهود الذين تحولوا للإسلام في القرن السابع عشر والمعروفون بيهود الدونمه. وقد بدأت الحركات السرية في الدولة العثمانية بجمعية الاتحاد والترقي التي أسسها طلبة الطب العسكري سنة ١٨٨٩م، أما حركة تركيا الفتاة فتأسست سنة ١٩٠٢، وانتشرت في الخارج في جنيف ومصر، وفي ١٩٠٦ بدأت تنتشر الخلايا الثورية في الجيش العثماني، وبخاصة في سوريا على يد الضابط مصطفى كمال.

وفي سنة ١٩٠٧ اندمجت الحركات الثورية في حركة "الاتحاد والترقي" واجتمعت الهيئة المشتركة في باريس وحددت الهدف وهو إعادة الدستور وخلع السلطان، ولو استدعى الأمر استخدام العنف الثوري، وكان سلاح الثوار الأمضى هو اتهام السلطان عبد الحميد الثاني بالاستبداد، ولم يستطع السلطان أن يفلت من هذا الشرك، فتكتلت ضده القوى المعارضة، ونجحت المقاومة في ضم عناصر كثيرة من الجيش العثماني نفسه. وبدأت عمليات العصيان المدني والتمرد تتوسع في أرجاء الدولة وترسل البرقيات على السلطان لإعلان الدستور، ولما فشل السلطان في التصدي للعصيان السلمي

أعلن عودة الدستور، حاول السلطان التنصل من وعوده لكنه اضطر أن يستجيب للضغوط الداخلية والدولية فحدد موعداً لانتخابات برلمانية حرة ونزيهة.

وصل شباب الاتحاد والترقي إلى ما كانوا يصبون إليه، فأصبح قادة الانقلاب أنور باشا ونيازي باشا أبطال قوميون، وظن الجميع أن مشاكل الإمبراطورية العثمانية التي علقت على شماعة عهد الاستبداد الحميدي قد انتهت، لكن الحقيقة أن الخلافات بدأت تدب بين حلفاء الانقلاب، فلا حلت مشكلة الأرمن ولم تتوقف الأعمال الإرهابية للأقليات التي تسعى للانفصال، أضف إلى ذلك أن أعضاء الاتحاد والترقي لم يكن لديهم برنامج واضح سوى العمل على إعادة الدستور والحياة النيابية، حتى هذه الأخيرة لم يكن لديهم تصور لتفاصيلها، لذا أبقت الساسة التقليديين في سدة الحكم وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد وأخذت هي تدير الحكم من وراء ستار، فلا يعرف أحد في يد من السلطة على وجه الدقة، الأمر الذي أدى إلى الخلط واستمرار أعمال العنف، وكل ما تم على أرض الواقع إلغاء البوليس السري وإلزام البوليس العادي باحترام الحريات تمهيداً للانتخابات، وتبلورت القوى التي خاضت الانتخابات في فريقين هما الاتحاديين بقيادة أنور ونيازي واتحاد الأحرار العائد من باريس الذي أعلن منح الأقاليم والأقليات استقلال ذاتي. تمت الانتخابات على مرحلتين في نوفمبر وديسمبر ١٩٠٨ وفاز الاتحاديون بجميع المقاعد فيما عدا مقعد واحد لاتحاد الأحرار. مثل البرلمان الجديد جميع الأقليات؛ فبلغ عدد الأتراك ١٤٧ عضوا، والعرب ٤٠ عضواً، و٢٧ ألبانيا، و٢٦ يونانياً، و١٤ أرمينيا، وأربعة يهود، و١٠ سلاف. [١]

افتتح البرلمان السلطان عبد الحميد في ديسمبر ١٩٠٨ لكن جهود أعضاء الأقليات عرقلت أي تقدم، ويبدو أن النية كانت مبيته للتخلص من

([١]) أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ص ٢٦٩، ٢٧١

السلطان وحاشيته بشكل تام، فتعالت أصوات الإسلاميين بإلغاء الدستور خوفاً على الشريعة الإسلامية من الاتجاه العلماني الجديد، عندئذ قرر الاتحاديون القيام بانقلاب عسكري للتخلص من السلطان عبد الحميد بشكل نهائي.

تقدم جيش الانقلاب بعد أن اكتملت صفوفه من سالونيك نحو استانبول، كان جيش العاصمة كفيلا بإهلاك هذه العصبة، لكن عبد الحميد الثاني رفض القتال، رفض توسلات قائد الجيش خليل باشا، كارهاً إسالة الدماء، معتقداً أنهم لا يريدون سواه، فقدم نفسه فداء لدماء العثمانيين، دخل جيش الانقلاب العاصمة وحاصر القصر السلطاني دون أن يتعرض له أحد من قوات العاصمة، في ٩ إبريل ١٩٠٩، طالب جيش الانقلاب عبد الحميد بالنزول عن كرسي الحكم فاستجاب لهم، ثم بدأت سلسلة من المحاكمات لقادة الجيش الموالين وفي مقدمتهم قائد الجيش خليل باشا، فكان الإعدام نصيب الغالبية العظمى منهم.

تولى حكم الدولة العثمانية بعد عبد الحميد شقيقه محمد رشاد بسلطة اسمية، لكن السلطة الفعلية غدت في يد جمعية الاتحاد والترقي، وبدأت سياسة التتريك، فتم إلغاء التعامل باللغة العربية أو أي لغة أخرى بخلاف اللغة التركية، الأمر الذي أثار العرب في تركيا، فتكونت حركات عربية سرية، لكن السلطات التركية الجديدة واجهتها بكل قسوة.

قاد رجال الاتحاد والترقي الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى التي لا ناقة لها فيها ولا جمل، فدخلت الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) وكانت النتيجة هزيمة وانكسار، ودخلت قوات الحلفاء استانبول في نهاية الحرب، وأصبح السلطان العثماني أسيراً، وهنا بدأت أولى حلقات صناعة بطل يرفع اسمه عالياً في سماء تركيا المنهزمة، ليقودها في المرحلة القادمة وينفذ السياسة التي رسمها الحلفاء إبان الحرب لتلك الدولة، والخطة باختصار أن يقوم الضابط مصطفى كمال بالدعوة إلى الجهاد

ويتولى طرد قوات الوفاق الغازية من البلاد، فتندحر أمامه وتنسحب، فيصبح مصطفى كمال في نظر الأتراك بطلا قومياً، وقد انخدع الجميع بهذه التمثيلية الساذجة حتى تغنى شعراء العرب بانتصاراته واعتبروه نصراً مؤزراً للإسلام فمدحه أحمد شوقي مشبها إياه بخالد بن الوليد في مطلع قصيدة من ٨٨ بيتا[١] جاء في مطلعها:

اللهُ أكبرُ كم في الفتحِ من عجبٍ * يا خالِدَ التُركِ جَدِّد خالِدَ العَرَبِ**

صُلحٌ عَزيزٌ عَلى حَربٍ مُظَفَّرَةٍ * فَالسَيفُ في غِمدِهِ وَالحَقُّ في النُصُبِ**

يا حُسنَ أُمنِيَّةٍ في السَيفِ ما كَذَبَتْ * وَطيبَ أُمنِيَّةٍ في الرَأيِ لَم تَخِبِ**

خُطاكَ في الحَقِّ كانَت كُلُّها كَرَمًا * وَأَنتَ أَكرَمُ في حَقنِ الدَمِ السَرِبِ**

حَذَوتَ حَربَ الصَلاحِيّينَ في زَمَنٍ * فيهِ القِتالُ بِلا شَرعٍ وَلا أَدَبِ**

لَم يَأتِ سَيفُكَ فَحشاءَ وَلا هَتَكَتْ * قَناكَ مِن حُرمَةِ الرُهبانِ وَالصُلُبِ**

سُئِلتَ سِلمًا عَلى نَصرٍ فَجُدتَ بِها * وَلَو سُئِلتَ بِغَيرِ النَصرِ لَم تُجِبِ**

مَشيئَةٌ قَبِلَتها الخَيلُ عاتِبَةٌ * وَأَذعَنَ السَيفُ مَطوِيًّا عَلى عَضَبِ**

أَتَيتَ ما يُشبِهُ التَقوى وَإِن خُلِقَتْ * سُيوفُ قَومِكَ لا تَرتاحُ لِلقُرُبِ**

وَلا أَزيدُكَ بِالإِسلامِ مَعرِفَةً * كُلُّ المُروءَةِ في الإِسلامِ وَالحَسَبِ**

مَنَحتَهُم هُدنَةٌ مِن سَيفِكَ اِلتُمِسَت * فَهَب لَهُم هُدنَةٌ مِن رَأيِكَ الضَرِبِ**

أَتاهُمُ مِنكَ في «لَوزانَ» داهِيَةٌ * جاءَت بِهِ الحَربُ مِن حَيّاتِها الرُقُبِ**

أَصَمٌّ يَسمَعُ سِرَّ الكائِدينَ لَهُ * وَلا يَضيقُ بِجَهرِ المُحنَقِ الصَخِبِ**

لَم تَفتَرِق شَهَواتُ القَومِ في أَرَبٍ * إِلا قَضى وَطَرًا مِن ذَلِكَ الأَرَبِ**

تَدَرَّعَت لِلِقاءِ السِلمِ أَنقَرَةٌ * وَمَهَّدَ السَيفُ في «لوزانَ» لِلخُطَبِ**

فَقُل لِبانٍ بِقَولٍ رُكنَ مَملَكَةٍ * عَلى الكَتائِبِ يُبنى المُلكُ لا الكُتُبِ**

لا تَلتَمِس غَلَبًا لِلحَقِّ في أُمَمٍ * الحَقُّ عِندَهُمُ مَعنىً مِنَ الغَلَبِ**

لا خَيرَ في مِنبَرٍ حَتّى يَكونَ لَهُ * عودٌ مِنَ السُمرِ أَو عودٌ مِنَ القُضُبِ**

وَما السِلاحُ لِقَومٍ كُلُّ عُدَّتِهِمْ * حَتّى يكونوا مِنَ الأَخلاقِ في أُهُبِ**

---

(١) **الشوقيات**، تقديم محمد حسين هيكل (دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان) جـ١، ص ص ٥٥- ٥٩

لَو كانَ في النابِ دونَ الخُلقِ مَنبَهَةٌ * تَساوَتِ الأُسدُ وَالذُؤبانُ في الرُتَبِ**

لكنه سرعان ما ظهر على حقيقته فانسلخ بدولته التي تربع على عرشها عن الأقاليم غير التركية، فسمح بتحقيق أحلام الغرب في تقسيم أملاك الدولة العثمانية وتوزيعها على الدول المنتصرة، وهي الأحلام التي ظهرت تحديداً في سايكس بيكو ١٩١٦ حيث وزعت مناطق النفوذ على دول الوفاق في تركة الدولة العثمانية، لتتحصل روسيا على ما تتطلع إليه في منطقة المضايق، وتحصل بريطانيا على فلسطين والعراق، بينما تحصل فرنسا على سوريا شمالي عكا، ويتم تدويل المناطق المقدسة في فلسطين، وتنكر للخلافة، فتأثر المشرق العربي أيما تأثر ورثى أحمد شوقي الخلافة في قصيدة جاء فيها

عادت اغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافـــراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصبـــاح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك في كل ناحية وسكرة صـــاح
ضجت عليك ماذن ومنابـر وبكت عليك ممالك ونـــواح
الهند والهة ومصر حزينـة تبكي عليك بمدمع سحـــاح
والشام تسال والعراق وفارس أمحا من الارض الخلافة مـاح
واتت لك الجمع الجلائل ماتما فقعدن فيه مقاعد الانـــواح
يا للرجال لحرة مـــوؤودة قتلت بغير جريرة وجنـــاح
ان الذين أست جراحك حربهم قتلتك سلمهمو بغير جـــراح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم موشية بمواهب الفتـــاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
حسب أتى طول الليالي دونه قد طاح بين عشية و صبـاح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها كانت أبر علائق الأرواح
جمعت على البر الحضور وربما جمعت عليه سرائر النـــزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جمعـــة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء و قـاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد بـواح

إن الذيـن جرى عليهم فقهـه خلقوا لفقـه كتيبـة و سـلاح
إن حدثوا نطقوا بخـرس كتائب أو خوطبوا سمعوا بصم رمـاح
أستغفر الأخـلاق لست بجاحد من كنت أدفع دونـه و ألاحـي
مـال أطـوقـه المـلام وطـالمـا قلدتـه المـأثـور من أمـداحـي
هـو ركـن مملكـة وحـائط دولـة وقريع شـهبـاء وكبش نطـاح
أأقـول من أحيا الجماعة ملحد وأقول من رد الحقـوق إباحـي
الحـق أولـى من وليك حـرمـة وأحـق منك بنصرة وكفـاح
فامدح على الحق الرجال ولمهموا أو خـل عنك مواقـف النصـاح
و من الرجال اذا انبريت لهـدمهم هرم غليظ مناكـب الصفـاح

وقد فضح البلاشفة هذا الاتفاق عند قيام الثورة في روسيا مارس ١٩١٧م، فدخلت تعديلات جديدة على هذه الطماع؛ فتخلى السوفيت عن أطماعهم في منطقة المضايق، وتبنت بريطانيا تنفيذ وعد بلفور ١٩١٧ بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وأعيدت صياغة هذه الأطماع من جديد في اتفاق سان ريمون ١٩٢٠م، لتبقى الدولة العثمانية مقتصرة على آسيا الصغرى والأستانة.

ويعلن مصطفى كمال انتهاء عصر الدولة العثمانية وقيام تركيا، ويتولى كمال أتاتورك مهام منصبه فيعلن إلغاء الخلافة الإسلامية ١٩٢٤ وسط ذهول العالم الإسلامي ثم يحول الأبجدية التركية من العربية إلى اللاتينية ويعلن أن الدولة التركية دولة علمانية، ثم يبدأ حربا شعواء على المساجد والكتاتيب والمدارس الإسلامية وكل ما هو ذا صبغة إسلامية.

الفصل الثامن

(جديد)

مصطفى كمال أتاتورك
وتركيا الحديثة

ظن مصطفى كمال أن الدين الإسلامي سببا في تخلف تركيا، فأراد أن يتخلص منه إلى الأبد، فأراد أن يقطع كل صلة لدولته بالمشرق الإسلامي، فألغى السلطنة العثمانية سنة ١٩٢٢، وفي العام التالي أعلن قيام الجمهورية وانتخب هو أول رئيس لتركيا وفي سنة ١٩٢٤ ألغى الخلافة العثمانية كما ألغى وزارة الأوقاف واستولت الدولة على الأملاك التابعة للوزارة، وأغلق مدارس تحفيظ القرآن والتعليم الديني بكل مناهجه ومدارسه، كما ألغى المحاكم الشرعية، وفي سنة ١٩٢٥ ألغى كل أنشطة التصوف في الدولة وأغلق جميع التكايا والزوايا، وأصدر قانونا يجبر الشعب التركي على ارتداء الملابس الأوربية، واستبدل الطربوش بالقبعة رمزا للعلمانية وفي سنة ١٩٢٦ ألغى قانون الأحوال الشخصية في الزواج واستبدله بالقانون المدني، فحرم تعدد الزوجات، وألغى المهور ومنع الرجل من حق الطلاق، وأعطى للمرأة حق الزواج برجل من غير دينها، وساوى بين الذكر والنثى في الميراث، وفي سنة ١٩٢٨ ألغى لفظ الجلالة من قسم رجال الدولة، وألغى عبارة الإسلام دين الدولة من الدستور، وأغلق تسعين مسجدا في استانبول وحدها، كما غير حروف الكتابة من العربية إلى اللاتينية، ليقطع كل صلة بالإسلام وما يتعلق به من تراث ثقافي وحضاري، وبقيت الكتب المكتوبة بحروف عربية على الأرفف لا علاقة للأجيال الجديدة بها، لتشكل جزءً من التراث العثماني الذي تضمه جدران المتاحف لكن لا تأثير له على الأجيال الجديدة. وفي سنة ١٩٢٩ ألغى دروس اللغة العربية والقرآن الكريم من المدارس ومنع قراءة القرآن فيها، وفي سنة ١٩٣٢ غير

الأذان والإقامة من العربية إلى التركية، وفي سنة ١٩٣٥ فرض العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلا من الجمعة.[١]

الحركات الإسلامية وتركيا الحديثة

واجه كمال أتاتورك علماء الدين بكل عنف وقسوة فأغلق أمامهم أبواب الرزق، بإغلاق المدارس التي تقوم بالتعليم الديني، وأحالهم إلى التقاعد، وأحرقت المصاحف وكتب التراث ودفن بعضها في باطن الأرض، وتكفلت الشرطة بعلماء الدين المعارضين لهذه السياسة فزجت ببعضهم في غياهب السجون وتعليق البعض الآخر على أعواد المشانق. وبلغت السخرية من كل ما هو شرقي أو إسلامي ذروتها في الاحتفالية التي أقيمت في الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية، عندما قامت الشرطة بجمع المصاحف وكتب التراث ووضعها على الإبل يسحبها رجل يرتدي لباس بدوي يجرها نحو الجزيرة العربية وقد علقت على رقاب الجمال لافتات تحمل عبارات تقول " جاءت من الصحراء ولتعد إلى الصحراء" و "جاءت من عند العرب فلتعد إليهم".[٢]

وعلى الرغم من الاضطهاد والتعذيب والقتل الذي اتخذه أتاتورك منهاجا ضد علماء المسلمين إلا أنه ظل بعض الرجال يحملون لواء الإسلام ويدافعون عنه منهم بديع الزمان عيد النورسي وفتح الله كولن وسليمان حلمي أفندي وصولا إلى نجم الدين أربكان ورجب طيب أردوغان.

النورسية أو طلاب النور:

تنسب النورسية إلى سعيد النورسي الذي عاش في الفترة من (١٨٧٣-١٩٦٠) المولود في قرية نورس بولاية بتليس بكردستان الغربية، شرقي

---

(١) طه عبد العزيز، التطور الحضاري للإعلام التركي وأثره على تركيا المعاصرة ١٩٢٣- ٢٠٠٠م (رسالة دكتوراة، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، ٢٠١٣)، ص ص ١١٧، ١١٨

(٢) طه عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١٦٣

الأناضول، حاول المؤسس أن يواجه المد العلماني الشرس في بلاده عقب سقوط الخلافة سنة ١٩٢٤، فأسس حركة ابتعد بها عن السياسة قدر الإمكان ليتفادى ضربات العلمانية الماسونية في الحكم والجيش والشرطة، فصرف جل اهتمامه إلى التربية والتعليم، عله يساهم في تنشئة جيل يتمكن من العودة إلى الإسلام. (١)

بدأ النورسي مرحلة جديدة في حياته الفكرية والدعوية في عام ١٩٢٣ نشط فيها في تأليف رسائل النور لإيقاظ الإيمان المخدر في نفوس الشباب، حاول أتاتورك إغراءه بالمال والمناصب لكنه رفض الاقتراب من السياسة وانصرف إلى التربية، فكون مجموعة كبيرة من النصار، شكلت هذه المجموعة الدرع الواقي له من الحكم العلماني الذي غيبه كثيرا في السجون، وصدرت ضده أحكاما بالإعدادم عدة مرات، لكنهم كانوا يعدلون عنها في كل مرة خوفا من ثورة أتباعه. (٢)

نجح النورسي في مواجهة الظروف الصعبة في تركيا الحديثة بإعلانه الدائم أنه لا علاقة له بالسياسة، ليفلت من العقاب ويتعايش مع العلمانية التي تمكنت من مفاصل، وكانت تهمة الانتماء إلى الإسلام وحدها جريمة

---

(١) بدأ النورسي دعوته في العقد الأخير من القرن التاسع عشر من خلال المسجد الجامع بمدينة ماردين، فوشى به حاكمها فنفي إلى تبليس سنة ١٨٩٢، انتقل في عام ١٨٩٤ إلى مدينة وان وعمل بالتدريس وتعمق في علوم التاريخ والفلسفة والفلك والرياضيات والفيزياء والجيولوجيا، فغدا عالما شموليا حتى أطلق عليه الناس "بديع الزمان" انتقل إلى استانبول في عام ١٨٩٦ لتأسيس جامعة الزهراء على نسق الجامع الزهر في مصر. تصدى لجمعية الاتحاد والترقي التي تمكنت من الإطاحة بالسلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ لايمانه بأنها جمعية ماسونية، وفي أثناء الحرب العالمية الولى تمكن الروس من إلقاء القبض عليه ونفوه إلى سيبيريا لكنه تمكن من الهرب والعودة إلى إستانبول عبر ألمانيا وبلغاريا، وفي استانبول استقبله الخليفة وشيخ الإسلام وطلاب العلم، منحته الدولة وسام الحرب وعين عضوا في "دار الحكمة الإسلامية" وهي أعلى مجلس علمي في الدولة العثمانية. لمزيد من التفاصيل راجع: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، (دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٤١٨هـ) مج١، ص ص ٣٢٤، ٣٢٥

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص ٣٢٦

تستوجب العقاب في القانون التركي الحديث. وجاء موقف النورسي من السياسة منذ أن حاول مصطفى كمال استدراجه إلى صفه، ثم أصبحت منهج حياة، وعندما سئل عما إذا كان يتبع طريقة صوفية قال ليس هذا زمن طريقة إنما زمن الإيمان، فالإيمان هو الطريق إلى الجنة، لكن يؤخذ على الشيخ أنه لم يساند الشيخ سعيد الكوردي في ثورته ضد كمال أتاتورك عام ١٩٢٥، تلك الثورة التي راح ضحيتها آلاف المسلمين في ديار بكر مقر الثورة، لكن أتباعه يرون أن مصير الثورة كان حتميا في هذه الظروف لذا كان عدم الانضمام إليها من حسن فطنة النورسي. كرس النورسي فكره في جهاد النفس أولا ثم الدعوة إلى تنوزير الأفكار والتزام طريق الدعوة السلمية وتجنب الدخول في مهاترات مع أعداء الإسلام في هذه المرحلة، بلغ عدد أعضائها قرب نهاية حياة مؤسسها حوالي نصف مليون شخص.[١]

غير أن التهديد والوعيد بالعقاب الشديد لم يثن النورسي عن بيان رأيه في منجزات الثورة العلمانية التي هدمت قواعد الإسلام ونقضت بنيانه فاعتبر أن إغلاق المدارس الدينية والزوايا والمساجد ووضع أسس القومية بديلا عن مبادئ الإسلام ضلالا وإلحادا، فأرسل رسالة إلى حلمي أوران زعيم حزب الشعب الجمهوري[٢] ينصحه بتبني الحقائق القرآنية بدلا من تبني المدنية الغربية، وحذره من تنامي المعارضة الإسلامية في نفوس الأهالي وهي فقط تنتظر قائدا لها، كما خوفه من سوء الخاتمة عند ربه.[٣]

ولم يكن اعتزال النورسي السياسة يعني أنه لم يشارك فيها مطلقا، فعندما أتيحت الفرصة في عام ١٩٥٧ للتصويت والاختيار بين الحزب

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص ص ٣٢٧، ٣٢٨

(٢) حزب الشعب الجمهوري أسسه مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٣ وهو حزب قومي علماني ظل هو الحزب الأوحد في تركيا حتى عام ١٩٥٠، أنشأ هذا الحزب عددا كبيرا من المدارس في أنحاء الجمهورية لتخريج المعلمين الذين يتبنون مبادئه.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ت: إحسان الصالحي (شركة سوزلر للنشر،القاهرة، ١٩٩٣) ط٢، ص ٤٦٨

الديمقراطي الحاكم وحزب الشعب المعارض ذهب النورسي لصندوق الاقتراع وأعلن تأييده للحزب الديمقراطي، على الرغم من توجهات الحزب العلمانية، لكن في عهده انحسرت لأول مرة في العصر الجمهوري موجة العداء والاضطهاد ضد الإسلاميين.[١]

تفرقت جماعة طلاب النور بعد موت مؤسسها وانقسمت إلى ثلاثة أقسام:

- قسم التحق بحزب الرفاة (السلام) الذي أسسه نجم الدين أربكان
- قسم ثان التزم الحياد
- قسم ثالث عادى حزب الرفاة وتحالف مع حزب العدالة الذي كان يرأسه ديميريل وخرجت منه مجموعات عملت ضد الأحزاب الإسلامية مثل يني آسيا (آسيا الجديدة) ويني نسل (الجيل الجديد)[٢]

بلب

الخاتمة:

(١) طه عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٩٩

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص ص ٣٢٧، ٣٢٨

وهكذا نشأت الدولة العثمانية كإمارة من إمارات الحدود الحاجزة بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، واستفادت من ضعف الطرفين وتوسعت على حسابهما، تم تعرضت لغزو مغولي كاد يقضي عليها لولا العناية الإلهية التي أنقذت أبناء السلطان بايزيد لوجودهم في الجانب الأوربي أثناء الغزو المغولي. ووصلت الدولة العثمانية إلى ذروة قوتها بوصول محمد الفاتح إلى سدة الحكم وتوجت التوسعات العثمانية في الجانب الأوربي بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م.

وفي مطلع القرن السادس عشر انتقل ميدان التوسع العثماني من أوربا إلى المشرق الإسلامي (العربي) ليشكل فصلاً مستقلاً بذاته، وخلال هذه الفترة وصلت الدولة إلى أوج توسعاتها ونجح سلاطينها في الحفاظ على هيبة الدولة وكيانها. وبذلك وصلت الدولة العثمانية إلى أقصى اتساعها، فغدت أملاكها منتشرة في قارات العالم القديم آسيا وأوربا وأفريقيا، وأصبحت تشرف على البحرين المتوسط والأحمر والخليج العربي علاوة على تحكمها في مدخل البحر الأسود، لتكون في تماس مع الغزاة الأوربيين وتتصدى لأطماعهم في ديار المسلمين. ومما لاشك فيه أن اتجاه العثمانيين نحو المشرق الإسلامي مثل إشكالية كبرى في تاريخ تلك الدولة، وفي محاولة لتفسير تلك الإشكالية أثبتت الدراسة أن أهم الدوافع لاتجاه الدولة العثمانية تمثلت في ملئ الفراغ السياسي الذي تركته دولة المماليك بعد أن دخلت مرحلة الضعف والانهيار، وإنقاذ العالم العربي الإسلامي من الأخطار التي كانت تتهدده آنذاك والتي تمثلت في الخطر الشيعي القادم من الشرق والخطر الصليبي البرتغالي القادم من الغرب، ولا يخلو الأمر من أطماع في التربع على عرش العالم الإسلامي وقيادته والإشراف على مقدساته.

وفي أعقاب حكم السلطان سليمان القانوني دخلت الدولة العثمانية مرحلة الاضمحلال، فتكالبت عليها الدول الأوربية، ولم تتمكن برامج الإصلاح التي تبناها السلاطين من إنقاذ الدولة، وقد وقعت محاولات كثيرة

للانفصال عن جسد الدولة، ويلقي البعض بالتبعة على الدولة العثمانية في حالة التأخر التي أصابت عالمنا العربي، وهو أمر ساهمت فيه طول فترة الاضمحلال التي امتدت عبر ما يربو على ثلاثة قرون، ولا يمكننا أن نعفي الدولة العثمانية من المسئولية، لكن يخفف من هذه المسئولية أن الدولة العثمانية والحضارة الإسلامية كانا يمران بمرحلة ضعف وانهيار من بعد قوة، وهو أمر طبيعي في حياة الأمم والحضارات.

ومما لا شك فيه أن الإدارة العثمانية ساهمت في هذه الحالة المتردية التي وصلت إليها البلاد في مرحلة الضعف لعدة أسباب أهمها: إقرار الكوادر الإدارية التي كانت لها السلطة والسيادة في البلاد من قبل في السلطة المحلية، لما لهم من خبرة ودراية بأحوال البلاد، لكنهم لم ينظروا إلى الجانب السلبي لهذه الخبرة، ألا وهي معرفتهم بسبل التسلط على هذه الشعوب. وكان كل هم الإدارة المركزية جلب الأموال للخزانة، ولم يهتموا بما يجمعه عمالهم وحكام الأقاليم من الشعوب، وما يترتب على ذلك من غبن يقع على الشعوب باسم الحكومة العثمانية.

اتبع العثمانيون نظام الملل مع أهل الذمة لاسيما المسيحيين، الذي ضمن حياة شبه مستقلة لكل ملة على حده، فلكل منها مذهبها ورجال دينها ولغتها ودور عبادتها وأديرتها ومدارسها ومحاكمها المختصة بالأحوال الشخصية، ولا يتدخل أحد في أمورهم المالية، وكان لرؤساء الملل اتصال مباشر بدار السلطنة، وعاش رؤساء الملل من البطاركة والحاخامين في قصور فخمة لا فرق بينها وبين قصور الأمراء من آل عثمان. اعترف العثمانيون بالكنيسة الأرثوذكسية كنيسة رسمية. ولم ترغم الدولة العثمانية رعاياها من المسيحيين واليهود على اعتناق الإسلام، وفتحت لهم باب العمل في الإدارة لاسيما الإدارة المالية، كما سمحت لبدو الحدود من المسيحيين بالاندماج في الجيش العثماني. استأثر أهل الذمة في العصر العثماني ببعض الحرف والمهن كتجارة الذهب والصرافة والترجمة.

أما بالنسبة لقضية الخلافة الإسلامية التي رجحت الدراسة عدم انتقالها إلى آل عثمان، لأسباب ذكرناها في مكانها، لكن الدولة العثمانية لعبت دور القيادة في العالم الإسلامي وهو الدور ذاته المنوط بدولة الخلافة، وإن تخلت عن اللقب لأسباب ذكرناها في مكانها أيضا، ثم عاد السلطان عبد الحميد ليتمسك بفكرة الخلافة في محاولة منه لتوحيد مسلمي العالم في مواجهة الهجمة الاستعمارية، ويجب أن نتيقظ إلى أن بريطاني سخرت مؤرخيها للتشكيك في انتقال الخلافة لآل عثمان، كما تبنت الفكر القومي لتفتيت الجبهة الإسلامية التي دعا إليها السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

أهم المراجع

- أحمد عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني** (دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٦)
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٤١٨هـ)
- بارتولد، **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ت: أحمد السعيد (الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨)
- بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ت: إحسان الصالحي (شركة سوزلر للنشر،القاهرة، ١٩٩٣) ط٢
- جمال كفادار، تكون الدولة العثمانية ت: عبد اللطيف الحارس، **مجلة الاجتهاد**، (العددان ٤١، ٤٢، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع ١٩٩٩م)
- حاتم الطحاوي، اقتحام العثمانيين للقسطنطينية شهادة المؤرخ البيزنطي دوكاس، **مجلة الاجتهاد**، (العددان ٤١، ٤٢، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع ١٩٩٩م)
- رجب محمد عبد الحليم، **انتشار الإسلام بين المغول** (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٦)
- زكريا سليمان بيومي، **قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين** (عالم المعرفة، ١٩٩١م)
- زيادة أبو غنيمة، **جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين** (دار الفرقان، ١٩٨٣)
- سالم الرشيدي، **محمد الفاتح**، (دار الإرشاد للنشر، جده، ط٢، ١٩٨٩م)
- صلاح ضبيع، العلاقات العثمانية البيزنطية، **مجلة الاجتهاد**، (العددان ٤١، ٤٢، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع ١٩٩٩م)

- طه عبد العزيز، التطور الحضاري للإعلام التركي وأثره على تركيا المعاصرة ١٩٢٣- ٢٠٠٠م (رسالة دكتوراة، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، ٢٠١٣)
- عبد السلام فهمي، **السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم**، (دار القلم، دمشق، ط ٤، ١٩٨٧م)
- عبد العزيز الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها** (الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م)
- عبد العزيز العمري، **الفتوح الإسلامية عبر العصور** (دار أشبيلية للنشر، الرياض، ١٩٩٧)
- عبد العزيز نوار، الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند (درا النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١م)
- عبد اللطيف بن دهيش، **قيام الدولة العثمانية** (مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٩٥)
- علي الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط** (مؤسسة أم القرى، الرياض، ٢٠٠٥)
- عمر عبد العزيز، **تاريخ المشرق العربي** ١٥١٦- ١٩٢٢(دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤)
- محمد أنيس، **الدولة العثمانية والشرق العربي** (الأنجلو المصرية، القاهرة، ، د ت)
- محمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة** (دار القلم، دمشق، ١٩٨٩)
- محمد علي الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** (دار المعرفة، بيروت، د. ت) جـ٢

- محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي (دار النفائس، بيروت، ١٩٨٨) ط٦
- محمد نصر مهنا، **الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي** (المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٠م)
- مصطفى بركات، **الألقاب والوظائف العثمانية ١٥١٧- ١٩٢٤** (دار غريب للطباعة، القاهرة، د. ت)
- نبيل رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث (مكتبة الطالب الجامعي، ١٩٨٨)
- نوال الصيرفي، **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي** (دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م)
- يوسف بك آصاف، **تاريخ سلاطين بني عثمان** من أول نشأتهم حتى الآن(مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥)
- يوسف علي الثقفي، **موقف أوربا من الدولة العثمانية** (نشر خاص، ١٩٩٧م)

الفصل	العنوان	الصفحة
–	مقدمة	٢
الأول	النشأة والتطور السياسي حتى الغزو المغو	٥
الثاني	عصر القوة والازدهار	٢٧
الثالث	جوانب من الحضارة العثمانية	٥٥
الرابع	الدولة العثمانية والمشرق الإسلامي	٨٧
الخامس	عصر الاضمحلال	١١١
السادس	حركة الإصلاح والتنظيمات العثمانية	١٢٧
السابع	السلطان عبد الحميد وقضية الخلافة	١٥١
الثامن	مصطفى كمال أتاتورك وتركيا الحد (مضاف)	
–	الخاتمة	١٧٤
–	أهم المراجع	١٧٥

فهرس الخرائط والصور والأشكال

م	العنوان	الصفحة
١	السلطان محمد الثاني (الفاتح)	٢٨
٢	موقع القسطنطينية	٣٠
٣	جانب من القتال على أسوار القسطنطينية	٣٤
٤	محاولات نقل السفن برا إلى القرن الذهبي	٣٦
٥	مسجد الفاتح من الداخل	٨٠

٦	مسجد أبو أيوب الأنصاري في استانبول	٨١
٧	الإمبراطورية العثمانية في أوج اتساعها	١٠٩